الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين

٤

المعز لدين الله

تأليف: الدكتور عارف تامر

دار دمشق
دار الجيل

الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة الرابع:

المعز لدين الله



تأليف

عارف تامر
دكتور في الآداب



دار
الجيل

الطبعة الاولى
١٩٨٠ م ـ ١٤٠٠ هـ

الخليفة الفاطمي الرابع
المعز لدين الله :

امتدت رقعة الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الفاطمي الرابع « المعز لدين الله » فأصبحت من شاطىء المحيط الأطلسي حتى البحر الأحمر ، وبلغة أصح كانت أعلامها في عهده ترفرف على مراكش ، والجزائر ، وتونس . وليبيا . ومصر . وفلسطين ، وسورية ، والحجاز . واليمن ، والندبة ، فضلاً عن صقلية ، وبهذا تكون قد فاقت باتساع رقعتها الدولـة العباسية ؛ وسبقتها في مضمار الرقي — وانتزعت منها زمام المبادرة ، وزعامة العالم الإسلامي .

وهنا لا بد من القول : بأن الفضل في هذا التوسع والإمتداد ، يعود إلى جهود وعبقرية قائد هذه الدولة ، وعقلها المفكر « المعز لدين الله » وإلى تدابيره ، وحسن إدارته ، وإقدامه ، وسياسته ، وثقافته الواسعة ، وحسن حظه باختيار الأعوان .

والقواد . والولاة . الذين ضموا جهودهم إلى جهوده . ووضعوا إمكانياتهم . وخبراتهم تحت تصرفه للنهوض بأعباء الحكم ، وتخطي العقبات والسير في طريق النجاح .

كان « المعز لدين الله » طاقة كبرى من العبقرية ، وشعلة حيّة من التوقد والذكاء ومجموعة من الشجاعة والإقدام . قبض بيد من حديد على زمام الأمور في دولته الفتيّة ، وهو في ريعان الشباب . فلم يترك شاردة ، أو واردة من أمور الدولة إلا وأشبعها درساً وبحثاً ، ولا داءً مستعصٍ إلاّ وأوجد له العلاج الناجع . وكان قاسياً مع الأعداء والمتآمرين ، وطيباً مع الأنصار والمؤيدين . . يلبس لكل حالة لبوسها ، ويعرف من أين تؤكل الكتف .

أما عصره فكان حافلاً بمظاهر العظمة والقوة ، فقد استطاع بما أوتيه من ذكاء فذ . ومهارة حربية ممتازة أن يوحّد بلاد المغرب كافة تحت رايته . وينتصر على الثائرين وعلى الأمويين . والروم في أكثر من موقعة . حتى كان الأمويون في الأندلس يخشون على بلادهم من أن تقع في قبضته . كما أن الروم سارعوا إلى محالفته خوفاً من قوته ونفوذه . وقد حاول أن يتخذ من صقلية وكريت جسراً للعبور إلى إيطاليا شمالاً . وإلى مصر والشام شرقاً ومنها إلى تقويض

الخلافة العباسية . وقد كان لنظم الحكم الدقيقة التي سار عليها أثر بعيد في ازدهار بلاده . ولا غرو فقد كان يمثل الحكم المستنير الذي يقوم على الفكر ، والدرس . وجمع السلطات كلها في يديه مع الإحتفاظ بالفرص الاحتياطية لاسعاد الشعب الذي يعتبره أمانة في عنقه .

تسلّم الملك بعد وفاة والده الخليفة الثالث « المنصوربالله » . وذكر أيضاً :

انه كتم خبر وفاته مدة من الزمن حتى تمكن من أخذ البيعة ، وهذه عادة درج عليها الفاطميون منذ أن أسسوا دولتهم في المغرب ، ولكن الكثيرين يستغربون هذه الحالة . ولا يجدون لها أدنى مبرر .

أجل ... تسلّم « المعز لدين الله » شؤون الدولة الفاطمية في وقت كان الهدوء والاستقرار يشمل القسم الأكبر من البلاد الخاضعة له . وذلك بعد القضاء على ثورة الخوارج التي تمّت بعهد والده « المنصور بالله » بينما ظلّ الوضع العام على حالته في المغرب الأقصى . وهذا ما جعله يحسب لهذا الأمر حسابه فيتخذ الخطوات السريعة لاحراز تقدم حاسم في هذا المجال ، بالقضاء على الامارات التي انفصلت عن جسم الدولة

الفاطمية ، وسد المنافذ أمام اطماع الأمويين ، فكان عليه قبل كل شيء تعيين قائد عـــام للجيش يكون على مستوى المسؤولية ، مالكاً القدرات ، والكفاءات للقضاء على الثورات والعصيان ، ووضع حد للأوضاع المتدهورة التي لم تكن تستقر فترة حتى تعود إلى الإضطراب من جديد . فعهد إلى « جوهر الصقلي » بمهمة القيادة العامة ، وألحق به « زيري بن مناد » أمير « صنهاجة » وولده « بلكين » ، و « جعفر بن فلاح » أمير « كتامة » و « جعفر بن علي الأندلسي » أمير « المسيلة » وهؤلاء القواد كانوا فاطميين لحماً ودماً تغلي في عروقهم الحماسة للفاطميين ، وحب المغامرة والرغبة بالظهور السريع ابتغاء الشهرة ، ونيل الثناء من الخليفة .

فانطلق الجيش الفاطمي إلى المغرب الأقصى ، وهناك دارت المعارك الرهيبة ، بل هناك تحقق النصر الحاسم ، ولم يمض سوى عام واحد حتى كان المغرب الأقصى يعود إلى الإنضواء تحت لواء الفاطميين ، ويرفع أعلامهم وشعاراتهم ، ويخطب باسمهم ، ويتعامل بعملتهم ، فعاد « جوهر » ورفاقه إلى « المنصورية » وهم يحملون ألوية النصر ، وتعلو هاماتهم أكاليل الغار .

أما « المعز لدين الله » ، فبعد أن تم له الأمر في عموم

المغرب ، عاد يوجه أنظاره إلى مصر والشام ، ولم يكن يشغله بعد هذا سوى وضع الخطط ، وتجهيز الجيوش ، وتدريبها ، وإعداد العدة للفتح . وفي الوقت نفسه لم يكن يتوانى عن تخصيص بعض الأوقات للنظر باصلاح أوضاع المغرب ، والنهوض به عمرانياً ، واقتصادياً بعد أن عصفت به الثورات الدامية ، والحروب المتواصلة وجعلته في حالة من الانهيار والدمار .

ذكر التاريخ :

أن « المعز لدين الله » كان من كبار رجال عصره . . . فاق اقرانه ، ومنافسيه علماً وسياسة وحرباً . . . فقد بدت عليه امارات النجابة منذ نعومة اظفاره ، حتى أن « عبيدالله المهدي » أعجب به وتنبأ بأن سيكون له شأن كبير كما أن « القائم بأمر الله » كان يأنس إليه ، ويتخذه واسطة بينه وبين الرعية ، وكان إذا غاب أرسل بطلبه ، ومن جهة أخرى اعتبره التاريخ مثلاً أعلى للخلفاء المسلمين ، بالنظر لما كان يتصف به من صفات رفعته إلى مصاف كبار الملوك والعظماء . فكان قوي العزيمة ، يواجه الصعاب دون خوف أو وجل ، يقف في عزم ثابت بوجه الثورات ، ويتصدى لمناوئة الأمراء الذين يثورون على الدولة ، وكان يضرب اعداءه دونما شفقة ، حتى تم له توحيد بلاد المغرب .

اسمه : الكامل . . « المعز لدين الله » ، لقبه « معد » . . كنيته « أبو تميم » والده « المنصور بالله » امه (أم ولد) ، ولد سنة ٣١٩هـ في «المهديّة» ، وتسلم الخلافة سنة ٣٤٢هـ أي عندما كا له من العمر ٢٣ عاماً مات ودفن في القاهرة سنة ٣٦٥هـ فيكون قد عمّر (٤٦) عاماً قضى منها أربعة وعشرين في مقعد الخلافة . رحل من المغرب إلى مصر سنة ٣٦١هـ وذلك بعد مضي أربعة سنوات على احتلالها من قبل القائد « جوهر الصقلي » .

أنجب أربعة أولاد هم :

« تميم » ، و « عبدالله » ، و « العزيز » ، و « عقيل » . وابنتين هنّ : « رشيدة » و « عبدة » . . . زوجته اسمها « تغريد » وذكر أن زوجته الأولى مغربية وهي (أم تميم) وقد ماتت في سن مبكر .

التدابير الاولى :

بعد أن تسلم الخليفة « المعز لدين الله » شؤون الدولـة الفاطمية . قام بسلسلة من التدابير والإجراءات أهمها :

١ - تعيين « جوهر الصقلي » قائداً عاماً لجيوش الدولة الفاطمية .

٢ - تعيين « جعفر بن فلاح » قائداً عاماً لفرقة المغاربة ومعاوناً ونائباً « لجوهر » .

٣ - أصدر عفواً خاصاً عن زعماء الخوارج أتباع «أبي يزيد» واطلق سراحهم وأعاد الاعتبار إليهم .

٤ - خرج بنفسه على رأس حملة حيث أخضع بعض القبائل الثائرة في الجبال والصحراء .

٥ - أرسل وفداً من المغرب إلى الحجاز لاصلاح ذات البين بين بني « الحسن » وبني « جعفر » وكانا يتصارعان

على مركز الزعامة ؛ وتعهد بدفع ديّات القتلى ، وهذه البادرة جعلتهم يتفقون على المناداة باسمه في الخطبة بجامع مكة سنة ٣٥٨هـ .

٦ ــ اقرار « الحسن الكلبي » على « صقلية » وإعطائه الصلاحيات التامة .

٧ ــ ارسال المزيد من الدعاة إلى مصر للتمهيد « بلجوهر » وجنوده ، وإعداد المصريين لتقبل الفتح .

٨ ــ تقوية الاسطول الفاطمي ، ووضع الخطط الجديدة لغزو بلاد الروم .

٩ ــ اتخاذه الشاعر الكبير « ابن هانيء الاندلسي » شاعراً خاصاً له .

١٠ ــ اتخاذه « يعقوب بن كلس » مستشاراً خاصاً للشؤون المصريـــة .

وهكذا أثبت « المعز لدين الله » أنه ذلك الرجل البعيد النظر الذي يعرف كيف يقبض بيديه على شؤون دولته ، ويصرف أمورها بحكمة ودراية ، وبعد نظر ، فلم يسجل التاريخ أي خبر عن قيام ثورات أو انتفاضات ، أو تحركات في المغرب ، بعد عودة « جوهر » من المغرب الأقصى اللهمّ

إلا ثورة الزناتيين وقيام بعض تحركات من قبل الادارسة بدافع من الأمويين . وهذه كلها كان يعهد بها إلى « زيري بن مناد » ويوجه بالقضاء عليها ، وعلى العموم فإن الأمور في المغرب نعمت في عهده بالهدوء والاستقرار والازدهار الاقتصادي وهذا لم يسبق لديار المغرب أن نعم به منذ سنين طويلة .

اشتهر « المعز لدين الله » بالعدل . وبالاحسان إلى الناس . ومقاومة الظلم ، والتمسك باهداب الدين . وكان يحرص على تلبية مطالب الرعية . وحاجات الشعب . رحب الصدر ، والحقيقة فإنه كان أقوى واعدل حاكم حكم بلاد المغرب في كل أدوار حياته . ولهذا أحبه الناس . وأطاعوه . وسلّموه أمورهم . وقيادهم ، فأصبح اسمه على كل شفة ولسان . وعرف عنه أنه كان يذهب إلى الصلاة لوحده دونما موكب . وينزل إلى الأسواق بمفرده دون حرس . يتفقد المتاجر . ويستمع إلى شكاوى الناس ومطالبهم . فيسجّل حاجاتهم وظلاماتهم ، كما كان يزور بيوت أصحابه . ورفاق صباه . والفقراء حيث يقف على أحوالهم . وطرق معيشتهم . وكان يضرب به المثل في حلمه مع خدمه وعبيده حتى لقد كان بعضهم يعترض عليه . ويقاطع رأيه . ويحتج عليه . ومع ذلك كان يجادلهم بالحسنى . ويناقشهم باللين . ولا يأخذهم

بالشدة . . . يفعل كل هذا ولا يجد الغضب إليه سبيلاً .

وذكر :

انه أمر أحد خدمه بأن يهيء له الحمّام ... وجلس ينتظر.. ثم مشى بعد مضي الوقت اللازم إلى الحجرة التي فيها الحمّام ، فرأى الباب مقفلاً . والحمّام لم تصلح . فسأل عن المفتاح ووقف طويلاً ، وما تغير حاله ، ولا غضب . ولا قال في ذلك شيئاً . ثم دعا بكرسي فجلس حتى جيء بالمفتاح وأصلح الحمّام .

أمّا ثقافته فكانت مضرب الأمثال ، فهو متفوق في كل علم ، آخذ من كل فن ، ومبرز في أي مجال . وذكر التاريخ :

انه تثقف على أيدي علماء من « صقلية » ، وانه كان يتكلم عشرة لغات دارجة في عصره ومنها الرومية ، واللاتينية ، والصقلية ، والسودانية ، وغيرها حتى أنه كان يجيد لغات ولهجات قبائل « البربر » . . . أمّا في آداب اللغة العربية وتاريخها ، وفلسفتها ، وفقهها فقد ضرب بسهم وافر لدرجة انه كان يملي على القاضي «النعمان بن حيّون» أكثر فصول كتبه ومؤلفاته .

جمع في يديه سواء في المغرب أو في مصر كافة الصلاحيات

والسلطات ، وأشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة . حتى ذكر بانه كان لا ينام إلا ساعات قليلة من الليل . والباقي يقضيها بالعمل والدرس ، والسهر على مصالح الرعية . وشؤون الدولة . وكان يقلد الولاة على الأقاليم ويزودهم بنصائحه ، ولم يعتمد على غيره في تعيين الولاة . بل كان يختارهم بنفسه ممن يثق بهم . وكان يحرص كثيراً على أن تصل إليه أخبارهم ، وكان أيضا هو الرئيس الأعلى للجيش البري والبحري يعين كبار القواد الذين مهروا في الفنون الحربية. وكثيراً ما كان يضع لقواده خطط الهجوم . وهكذا بالنسبة للقضاء ، وللشرطة ، وللشؤون المالية .

من القصص التي تروى عنه :

انه في أحد الأيام الممطرة استدعى شيوخ « كتامة » ، وكبار رجال الدولة إلى قصره في « المنصورية » . فدخلوا عليه ، وإذا هو جالس في إحدى القاعات المفروشة باللبود على مطارح وحوله كساء ، وعليه جبة ، وبين يديه مرفع ودواة ، وهو يرد بخطه على الكتب الواردة إليه . ويوجه الرسائل إلى العمال والولاة في الاقاليم . وفيها التوصيات ، والتعاليم ، والأوامر . . . فقال لهم :

يا اخواننا . . . أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد ...

فقلت لأم الأمراء . وأخالها الآن تسمع كلامي : أترى اخواننا يظنون أنّا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب في المثقل والديباج . والحرير . والفنك . والسمور ، والمسك . والعنبر . والغناء كما يفعل أرباب الدنيا . ثم رأيت أن أنفذ إليكم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم . واحتجبت عنكم .

وذكر التاريخ :

انّ « المعز لدين الله » كان وسيماً ، وجميل القامة ، ومهيباً لدرجة انه لم يكن باستطاعة أحد التحديق في وجهه وعينيه . وقد وصفه « نيقولا » سفير امبراطور الدولة البيزنطية عندما قام بزيارته سنة ٣٥٧هـ في مدينة «المنصوريّة» ليبلغه رسالة من الامبراطور فقال :

« أخطأ الروم حينما أطلقوا عليه اسم (ملك المتبربرين) فأنا حينما بعثني إليه « نقفور فوكاس » رأيت من عظمته في عيني ، وكثرة اصحابه ما كدت أموت منه . وحينما دخلت عليه رأيت فيه نوراً عظيماً غطىّ بصري . وكان على سريره كأنه ملاك هبط من السماء » . وذكر التاريخ أيضاً :

ان الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » هو أول من فكر أي منذ ألف ومئة عام بصنع خزان لخزن الحبر في الأقلام ،

وبالفعل تعمّم هذا الاختراع في ذلك العصر . واستعملت الأقلام ذات الخزان التي توفر على الكاتب عناء حمل الدواة . . وهكذا فيكون هو مخترع قلم الحبر « Stylo » .

ومماً يدل على عبقريته . وسعة اطلاعه: انه كان يرسل السفن والبواخر من مصر إلى شواطىء لبنان في كل ربيع من العام لحمل الثلوج الطبيعية إلى مصر . حيث يكون قد أعدّ لها أمكنة خاصة في أقبية تحت الأرض بعد أن يضاف إليها بعض المواد لحفظها حتى آخر فصل الصيف . وكان يستعملها لتبريد المياه . وذكر :

ان أحدهم سأله عن حسبه ونسبه ؟ فسكت . . . وفي ثاني يوم أدّب مأدبة كبرى دعا إليها وجوه البلاد . وشيوخ القبائل . وكبار رجال الدولة . وبعد أن أكلوا وشربوا قال لهم :

دعوتكم لأقص عليكم خبر رجل يحضر بيننا الآن . وقد سألني أمس بارتياب عن حسبي ونسبي ؟ وها أني أجيبه :

هذا هو حسبي . وأشار إلى سيفه . وثم هذا هو نسبي وأشار إلى كيس بقبضته مليء بالنقود . وذكر :

انه أخرج إلى بعض جلسائه طبقاً من التفاح وقال :

هذا تفاح جاءنا من المشرق ... من البلد الذي خرج منه « المهدي » و « القائم » . ومن الضياع التي كانت لهما . وقال : تبركوا به ، فأنّا نرجو ان شاء الله أن تقطفوه غداً بأيديكم من شجره مباشرة معنا. وكان يقصد بذلك بلدة «سلمّية»

وذكر مصدر تاريخي عنه :

ان عامل الفاطميين في مدينة « فاس » أعان أحد أصدقائه الأغنياء على اغتصاب قطعة أرض كان يملكها أحد الفقراء ، فجاء الفقير إلى « المنصوريّة» ودخل عليه باكياً ثم عرض قصته فأرسل « المعز » بطلب الوالي وصديقه الغني ، وبعد ثبوت الإغتصاب عزل الوالي ، وسجن الغني وأعاد الأرض إلى صاحبهـــا .

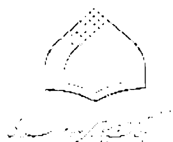
وقد مر معنا أن « المعز » بعد أن وصل إلى الديار المصرية أصدر أمره بالعفو عن الاخشيديين والكافوريين الذي دعوا إلى الثورة . وعاونوا القرامطة عندما هاجموا الديار المصرية ، كما أنه أحسن إليهم بعد إعلان توبتهم ، وأعاد إليهم اعتبارهم ، وولى من يستحق منهم بعض المناصب في الجيش وإدارة الدولة . وذكر :

ان زوجة « الإخشيد » كانت قد أودعت عند صائغ

يهودي (بغلطاق) أي عقد من الجوهر . ثم لما ضاقت بها الدنيا طلبته منه . فأنكره . فقالت له : خذ كم البغلطاق واعطني ما فضل فأبى فلم تزل به حتى قالت : هات الكم . وخذ الجميع . . . فلم يفعل . . . وكان في البغلطاق بضع عشرة درة . فأتت المرأة إلى قصر « المعز » وأخبرته بأمرها . فأحضر اليهودي . وقرره . فلم يقر . فبعث إلى داره من خرّب حيطانها . فظهرت فيها جرة البغلطاق . فلما رآه « المعز » تحير من حسنه ووجد ان اليهودي أخذ منه درتين . فاعترف أنه باعهما بألف وستمائة دينار . فأخذه « المعز » وسلّمه للمرأة وحكم على اليهودي بدفع المبلغ الذي أخذه ثمن الدرتين . وهنـــا طلبت امرأة « الاخشيد » من « المعز » أن يأخـــذ العقد هدية وقالت يا مولاي : هذا كان يصلح لي وأنا صاحبة مصر . أما اليوم فلا يصلح إلاّ لزوجتك . ولكن « المعز » رفض ذلك بإباء .

ومهما يكن من أمر فاننا مهما سجلنا على الصفحات من مآثر . وعبارات المديح . والاطراء « للمعز » فلا نكون إلا كمن يغرف قطرة من بحر . ويكفي أن يكون واضع أسس نهضة مصر وحضارتها فالدولة الفاطمية انتقلت في عهده إلى مصاف الامبراطوريات . فلم يكن هدفه من احتلال مصر إلا توحيد

عرب أفريقيا وعرب آسيا . ومعنى هذا انه فكر بالوحدة العربية ونادى بها منذ أن تسلم شؤون الدولة الفاطمية في المغرب . ومن جهة أخرى كان من خططه الاستيلاء على الشام ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية ليضمهما إلى مصر والمغرب . وبهذا تكون قد تحققت الوحدة العربية التي ننادي بها الآن .



المعز لدين الله في مصر

قبل أن يغادر « المعز لدين الله » المغرب ، قاصداً مصر ، نظر فيمن يوليه أمر المغرب . وكان يريده من ذوي الهمة . والاخلاص . والكفاءة ورسوخ القدم في إدارة الدولة فوقع اختياره على « بلكين بن زيري بن مناد » أمير « صنهاجة » ونجل « زيري » القائد الذي حارب مع « القائم بأمر الله » . و « المنصور » . و « المعز » ثم ذهب أخيراً ضحية اخلاصه للفاطميين بما قدمه من ضروب التضحية ، والوفاء . والاخلاص فجاء به وقرّبه وسمّاه « يوسف » وكناه « أبو الفتوح » ، وأعطاه لقب « سيف الدولة » ثم سلّمه شؤون المغرب ببيان موقع أذاعه على الناس وأطلق يده في الجيش . والمال . والاعمال ، واستثنى من ذلك ولايتي « طرابلس » و « برقة » وجزيرة « صقلية » إذ جعل هذه المناطق الثلاث تابعة إليه مباشرة .
وأوصاه بثلاث :

١ – ألا يرفع السيف عن « البربر » .

٢ – ألاّ يرفع الجباية عن أهل البادية .

٣ – ألاّ يولي أحداً من أسرته أية مسؤولية .

وبعد أن أتم كل ما يتعلق بشؤون المغرب ، غادر « المنصوريّة » . فوصل إلى « الاسكندرية » عبر « برقة » في جمع من رجال الدولة ، وكان يرافقه اخوته وأولاده ، وأعمامه ، وجثث « المهدي » و « القائم » . و « المنصور » بتوابيت ، فاستقبله على مدخل المدينة أعيان البلاد . وخرجت المدينة بشيبها وشبابها ، وعلى رأسهم والي المدينة ، وقاضي القضاة « أبو طاهر الزهلي » ، فجلس « المعز » عند المنارة للاستراحة ، ثم خطب بالجموع ، وممّا ذكره أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ، ولا لمال يحصل عليه ، وإنما لاقامة الحق ، والحج ، والجهاد ، وتطبيق أوامر الله ، والحفاظ على سنة الرسول الكريم (صلعم) ولكي يختم عمره بالاعمال الصالحة ، ويذكر التاريخ :

أنه وعظهم وأطال في الوعظ حتى أبكى الحاضرين .

ومن « الاسكندرية » تابع المسير ، فوصل إلى « الجيزة » ، وهناك خرج إلى استقباله « جوهر » فترجل عندما رآه ، وقبل

الارض بين يديه ، وكان في عداد المستقبلين الوزير « جعفر بن الفرات » الذي رغب أن يجتمع إليه على انفراد . وأن يبقيه معه ثلاثة أيام في « الجيزة » ، وبعد « الجيزة » تابع المسير . فأخذ جنوده بالعبور إلى ساحل مصر . ثم أن « المعز » عبر النيل على سفينة خاصة جهزت له . ودخل « القاهرة » دون أن يمر على « الفسطاط » . وكان الناس قد زينوها . وأقاموا الأقواس . وتأهبوا لاستقباله . . . ولما دخل « القاهرة » توجه إلى القصر الذي أعدَّه له « جوهر » . فخرَّ لله ساجداً . ثم صلى ركعتين في إحدى الردهات . وصلى خلفه كل من كان معه .

ويذكر التاريخ :

ان « المعز » أقام في القصر مع أولاده . وحاشيته . وخدمه ، وعبيده . وكان « جوهر » قد أعد كل ما يحتاج إليه الخليفة من أموال ، وحلي . وجواهر ، وأثاث . ورياش، وأوانٍ وثياب . وسلاح . . . ومن المعلوم أنه كان يقيم في هذا القصر ، فلما وصل « المعز » إليه تركه ولم يحمل معه أي شيء من أثاثه إلاَّ ما كان عليه من الثياب ، ونزل في داره التي أعدها في « القاهرة » وفي اليوم الثاني لوصول « المعز » خرج اشراف مصر . وقضاتها وعلماؤها لتهنئته ، والاحتفال

بمقدمه . ويضيف التاريخ : (وقد يكون في هذا الكثير من المبالغـــة) :

انه جلس في قصره على سرير من ذهب صنعه له « جوهر » في الايوان الجديد ثم أذن للناس بالدخول عليه ، وكان« جوهر » بين يديه يقدم إليه الناس قوماً بعد قوم ، معرّفاً إياه بهم ؛ وبعد أن فرغ من السلام على الناس تقدم منه ، وطلب الإذن بتقديم الهدية التي أعدها له بمناسبة قدومه إلى مصر ، وهي :

مئة وخمسين فرساً ملجمة ، وبعض السروج واللجم الموشى بالذهب ، وبعضها مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون من الإبل وعليها الديباج ، والمناطق والفرش . وتسعة مـــن النوق المحملة بالحرير ،وثلاثين بغلة ، سبعةٌ منها مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثين بغلة للنقل ، واربعة صناديق مشبكة شفّافة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومئة سيف محلّى بالذهب ، والفضة ، بالإضافة إلى الأواني والأوعية ، وبعض التحف الثمينة ، ولما فرغ « جوهر » من تقديم هديته نهض « أبو جعفر عبدالله الحسيني » وقدم هديته إلى « المعز » . وهي إحدى عشر سفطاً من متاع « تونس » و « تنيس » و « دمياط » بالاضافة إلى الخيل والبغال .

وفي ثاني يوم ركب «المعز لدين الله» الى مصلّى «القاهرة»؛

فصلّى بالناس وجلس خلفه «أبو جعفر مسلم العلوي» ، ولمّا فرغ من الصلاة صعد المنبر . ومعه القائد «جوهر» و «عمّار بن جعفر» . فخطب بالناس وأبلغ في خطابه حتى أبكاهم ، ولمّا عاد إلى قصره دعا الناس إلى تناول الطعام معه ، وبعد ذلك خلع «المعز» على «جوهر» خلعة مذهبة ، وعمامة ، وقلّده سيفاً ، وعشرين فرساً ملجمة مسرجة ومنحه خمسين ألف دينار ، ومائتي ألف درهم وكل هذا رداً على هديته . وفي المساء ذهب إلى «المقس» للاشراف على الأسطول الفاطمي الذي أوصى «جوهر» بتوليته عنايته . وتقويته والاكثار من عدد سفنه .



أخلاق تبني الدول
وأفكار سبقت الزمن

ذكر التاريخ :

ان الوزير « جعفر بن الفرات » أجبر من قبل المصريين على استقبال الخليفة « المعز لدين الله » ، عند وصوله إلى مصر ، وكان قد رفض قبل ذلك استقباله . وعندما اتصل بمسامع « المعز » أسرَّها في نفسه ، وقد ذكر أن « المعز » سأله عند اجتماعه به للمرة الأولى :

أحج ، الوزير ؟
فقال : نعم . . .
قال « المعز » :
وزرت قبر الشيخين ؟

ولمَّا رأى « ابن الفرات » بذكائه ودهائه ان « المعز » قصد بهذا السؤال احراجه ، والايقاع به . أجابه على الفور .

«شغلني عنهما رسول الله (صلعم) كما شغلني أمير المؤمنين عليه السلام عن السلام على ولي العهد، السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ، ورحمة الله وبركاته»، وكان من أثر هذا الجواب أن عرض «المعز» على «ابن الفرات» منصب الوزارة . فاعتذر عن قبوله ، ولكن «المعز» عاد وطلب إليه البقاء في مصر بعد اعتزاله المنصب ليكون على مقربة منه ، ولاستشارته في الأمور المهمة التي تعرض له .

ومن الجدير بالذكر :

ان منصب الوزارة أسند بعده إلى «يعقوب بن كلس» الذي أولى «ابن الفرات» محبته وعطفه وتقديره بالرغم من انه اساء إليه وسجنه في عهد «كافور» . فكان «ابن كلس» يختلف إليه ويأخذ رأيه ، ويتناول الطعام عنده ، وتوثقت أخيراً أواصر الصداقة بين الرجلين لدرجة أن «ابن الفرات» زوّج من ابنه «الفضل» بابنة الوزير «ابن كلس» .

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم «ابن الفرات» في عهد «المعز» ، فقد ذكر أنه عاد وتولى الوزارة بعهد الخليفة الخامس «العزيز بالله» سنة ٣٨٦هـ لمدة عام كامل . وأخيراً توفي سنة ٣٩١هـ بعد أن لعب دوراً بارزاً في حياة مصر بعهد العباسيين . والاخشيديين ، والفاطميين .

وذكر التاريخ :

ان « المعز لدين الله » عندما وصل إلى « الاسكندرية » خفَّ الناس إلى استقباله ، ونزل كل من كان راكباً ، وقبَّل الأرض بين يديه عدا قاضي القضاة « أبا الطاهر محمد بن صالح بن أسامة الذهلي » فانه ظل راكباً حتى قرب من « المعز » فترجل وسلَّم عليه ، ولم يقبِّل الارض ، فلفت ذلك نظر الخليفة ، فسأل أحد مرافقيه عن الرجل الذي خالف الناس كلهم ، قيل له : انه قاضي القضاة ، وذكر أن جوابه للذين انتقدوه على موقفه هذا قول الله تعالى :

« ومن آياته الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر . . . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » .

وبالرغم من هذا فان « المعز » أقرَّه في منصبه ، جرياً على السياسة التي طبقها القائد « جوهر » منذ أن تم له فتح البلاد المصرية ، وليس بعيداً أن يكون قد أقرَّه في منصبه لما رآه من ذكائه وحسن بديهته ، فقد ذكر أن « المعز لدين الله » سأله لدى المقابلة الأولى :

كم رأيت من خليفة ؟ فأجابه على الفور :

ما رأيت غير مولانا « المعز لدين الله » ، فاستحسن « المعز » منه ذلك بالرغم من معرفته بأنه اجتمع إلى « المعتضد » و« المكتفي » ، و« المقتدر » العباسيين .

وذكر التاريخ :

إنه لمَّا وصل إلى مصر، عرض عليه «جوهر» مرة الأسرى، وكـــان من بينهم «منجوتكين» وكان لا يزال غلاماً . فلمَّا رآه «المعز» نظر إليه وتأمله . . . فلمَّا انتهى « جوهر » من عرض الأسرى قال « للمعز » :

رأيتك يا مولاي تطيل التحديق في هذا الغلام التركي ، ولم تنظر لغيره . . فقال :

يا « جوهر » . . . سوف ترى أنه يكون لنا فتوحات عظيمة على يد هذا الغلام . وكان يعني بذلك « منجوتكين » . . وذكر أن « منجوتكين » هذا خرج من قصر « العزيز بالله » سنة ٣٨١هـ وهو ممتطٍ جواده . وكان في حاشيته القائد «جوهر» و« ابن عمَّار » . وغيرهما من رجالات الدولة وهم مشاة وكانت يد « جوهر » في يد « ابن عمَّار » . . . فتنهد « ابن عمَّار » ، وزفر زفرة كادت تخرق صدره وقال :

لا حولَ ولا قوة إلاَّ بالله . . . فنزع «جوهر» يده منه وقال :

قد كنت عندي يا «ابن عمار» أثبت من هذا ... لكل زمان دولة ورجال ... أتريدنا نحن أن نأخذ دورنا ودور غيرنا ؟ بالامس لمّا سرت إلى مصر أمر مولانا «المعز» أولاده ، واخوته وولي عهده ، وسائر أهل دولته بالترجل لي.. وها أنا اليوم أمشي راجلاً بين يدي «منجوتكين» الغلام الذي أسرته في إحدى المعارك ... لقد أعزونا وأعزوا بنا غيرنا ... والآن أقول : اللهمّ قرب أجلي وموتي فقد تجاوزت الثمانين .

وذكر التاريخ :

ان القرامطة حينما ظهروا للمرة الثانية سنة٣٦٣ﻫ في «عين شمس» ، وفي ذلك الوقت عاونهم أنصار الاخشيدية والكافورية . فنظر «المعز» إلى قوتهم ، وعرف من بعض عيونه التي بثها ان قوة القرامطة تتمثل في قبيلة «بني طي» العربيّة . فأرسل من اجتمع بزعيمها «حسّان بن جرّاح» الطائي وتمكن من إغرائه بالمال إذا ما تظاهر بالفرار من المعسكر عندما تبدأ المعركة . فقبل العرض ، وعندما قام الجيش الفاطمي وكان بقيادة الأمير «عبدالله بن المعز» بالهجوم على معسكر القرامطة في الوجه البحري ، فرّ «ابن الجرّاح» مع جماعته ، فبقي «الأعصم» مع قلة من جنوده

لم تستطع الثبات في المجال ، وهكذا وفي خلال ساعات قليلة تمكّن المغاربة من السيطرة على الميدان، فنهبوا معسكر القرامطة وقتلوا في تلك المعركة ما يقارب الألفين قرمطي . وبعد هذا التاريخ بدأت قوى القرامطة بالانحلال . وعلى الخصوص بعد أن دبّ النزاع في داخل الصفوف المحاربة . وقد كان لخطة « المعز » ودهاءه السياسي أكبر الأثر بهذا النصر الحاسم . وقد عرف بأنه أرسل إلى « ابن الجرّاح » مبلغ مائة ألف دينار مزيفة ومغطاة بطبقة من الذهب . ثم وضعها في أكياس . وعلى وجه كل كيس عدد من الدنانير الصحيحة المضروبة من الذهب الخالص .

أعماله العمرانية

في هذا الفصل سنتحدث عن أعمال «المعز» العمرانية في المغرب ، أما في مصر فسنتكلم عنها في الفصل الخاص «بجوهر» الصقلي .

لقد عرفنا بأن «عبيد الله المهدي» أقام مدينة «المهدية» ، وجعلها عاصمة لدولته . وظلّت هذه المدينة عاصمة للدولة في عهد «القائم» بأمر الله . وحين جاء «المنصور» ، عمّر مدينة «المنصورية» وظلّت عاصمة للدولة الفاطمية حتى في عهد «المعز» بالمغرب . ويذكر التاريخ :

أنه بنى فيها قصراً سمّاه «قصر البحر» . وقد ارتاد موضعه ، وقاس أبعاده ، ووضع تصميمه بنفسه : فجعله في أرض فسيحة . وأنشأ في وسطه بحيرة ذات اتساع كبير ، كما أقـام قصراً آخر في وسط البحيرة وبـذلك يكون «قصر البحر» بين قصرين . وأقام الجسور لوصل القصر

الداخلي بالقصر الخارجي ويشبه هذا القصر قصور قدماء المصريين .

كما أنشأ في «المنصوريَّة» البساتين الغنَّاء، ومنها بستان وادي «القصَّارين» . وقد أجرى فيه نهراً وغرسه بأصناف الشجر والرياحين والورود . وكذلك حفر قناة آية في الروعة والدقة وكانت تتدفق مياهها من العيون خارج «المنصوريَّة» في مكان يعرف «بعين أيوب» وتبعد عنها أكثر من ثلاثة وسبعين ألف ذراع . ويتخلل الطريق الذي تنساب فيه هذه القناة مرتفعات، ومنخفضات وصخور ثم تنساب في الارض حتى تصل إلى قلب «المنصورية» . وكان الخليفة «المنصور بالله» قد حاول استغلال مياه «عين أيوب» لتوصي المياه إلى «القيروان» . ولكن ثورة الخوارج حالت دون ذلك ، أمَّا «المعز» فقد أكمل المشروع رغم ما كلَّف الدولة من أموال ونفقات . وذكر : أنه كان يخطط لحفر قنال من البحر إلى «المنصوريَّة» بحيث تصبح هذه القنال ممراً للسفن الكبيرة والصغيرة . ونقل «المعز» إلى «المنصوريَّة» عمودين حجرين كبيرين كانا بمدينة «سوسة» . ويظهر أنهما من بقايا آثار القرطاجيين وكانا من الضخامة بحيث أن النظر إليهما عبرة ، ولم يتمكن أحد من نقلهما . أما «المعز» فأرسل العمَّال والعبيد ودفع لهم الأموال حتى جاءوا بهما .

ولا نريد أن نطيل الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية في عهد « المعز » في المغرب ومصر وما قام به هذا الخليفة العبقري من أعمال في حقول العمران والاقتصاد ، ففي المغرب امتلأت خزائن الدولة بالأموال ويرجع ذلك إلى الأنظمة الاقتصادية التي طبّقها ، وإلى السياسة العامة التي كان يوجهها ، ومما يدل على مظاهر الثروة في عهده الاغاثة العاجلة التي قدمها إلى الديار المصرية في وقت محنتها من الحبوب والارزاق والأموال ، وإلى إنفاقه المبالغ الطائلة على الجيوش والحملات التي تصل إلى المحيط الأطلسي ، وتهدد الأمويين في عقر دارهم ، وتقف بالمرصاد للبيزنطيين . ويذكر التاريخ :

انه لما عزم على الرحيل إلى مصر حمل معه أمواله على ألف بعير ، وسبك الدنانير على شكل طواحين ، جعل على كل جمل قطعتين ، وجعل في وسط كل قطعة ثقباً تجمعه إلى القطعة الأخرى .

ونحن نعتقد أنه لو قدر « للمعز » البقاء طويلاً على قيد الحياة في مصر لاستطاع أن يستغل مركزها الجغرافي في التجارة ، وخصب أرضها في الزراعة ، ووجود النيل العظيم فيها ، ولكانت فاضت خزائنه بالاموال ، ووصلت إلى ذروة المجد حضارة ، وتقدماً ، ومدنيـــة .

الخليفة الاديب

عرف الخليفة « المعز لدين الله » الفاطمي بثقافته الواسعة ، وبلاغته . ومهارته بالخطابة وتأثيره على السامعين . فقد ذكر : أنه كان ينص على القاضي « النعمان » مواد كتبه وخاصة كتاب « دعائم الإسلام » وهو في فقه الدولة الفاطمية . وذكر : أنه قال له مرة . . . وقد ذكره « النعمان » بقوله :

أمرني « المعز لدين الله » بجمع شيء لخّصه لي وجمعه ، وفتح لي معانيه ، وبسط لي جملته، فابتدأت منه شيئاً ثم رفعته إليه . واعتذرت من الإبطاء عليه لما أردته من احكامه ، ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقته فطالعته في مقداره فوقّع إليّ :

يا « نعمان » لا تبالي كيف كان القدر مع اشباع في إيجاز فكلما أوجزتَ في القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن ».
وذكر : انه كان يقول :

ان أكثر الناس يجهلون أمرنا ، ويظنون أننا لا نعني إلاّ بما شاهدناه . وكان بحضرتنا . وكان يقول لبعض الاولياء :

ما تنظرون اليوم في شيء تنتفعون به ... ما تقرأون شيئاً ... ما تسمعون شيئاً ؟ .. فسكتوا ... وكان يحرضهم على المطالعة ، والتزود بالمعرفة .

وتتجلى بلاغته بالكتاب الذي أرسله إلى « الحسن الأعصم » ... ومنه :

« ولقد جمعت أرجاسك وانجاسك وحشدت أوباشك وأقلاسك وسرت قاصداً إلى دمشق ، وبها « جعفر بن فلاح » في فئة قليلة من « كتامة » و « زويلة » فقتلته وقتلتهم جرأة على الله . واستبحت أموالهم ، وسبيت نساءهم ، وليس بينك وبينهم ترة ولا ثأر ، ثم سرت ولم ترجع وأقمت على كفرك ولم تقلع حتى أتيت « الرملة » وفيها « سعادة بن حيّان » في زمرة قليلة فاعتزل عنك إلى « يافا » . فلم تزل ماكثاً على نكثك باكراً وصابحاً وغادياً ورائحاً لا ينهاك عن سفك الدماء دين ولا يردعك عهد ولا يمين » .

وكتب « المعز » من المغرب إلى « جوهر » وهو بمصر :

« وأمّا ما ذكرت يا « جوهر » من أن جماعة من بني

« حمدان » وصلت إليهم كتبك يبذلون الطاعة ويعدون بالمسارعة في السير إليك . . . فاسمع لما أذكره لك :

احذر أن تبتديء أحداً من آل « حمدان » بمكاتبة . ترهيباً له ولا ترغيباً ، ومن كتب إليك منهم فأجبهم بالحسن الجميل ، ولا تستدعه إليك ، ومن ورد إليك منهم فاحسن إليه ، ولا تكن أحداً منهم من قيادة الجيش ، فبنو « حمدان » يتظاهرون بثلاثة أشياء عليها مدار العالم وليس لهم فيها نصيب . يتظاهرون بالدين . وليس لهم فيه نصيب . ويتظاهرون بالكرم . وليس لواحد منهم كرم في الله . ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا . . . فاحذر كل الحذر من الاستنامة إلى أحد منهم » . وذكر التاريخ :

ان « المعز لدين الله » كان شاعراً . وان له مقاطع من الشعر تطفح بالرقة والعذوبة . ولكن يبدو انها فقدت كما فقد غيرها من الآثار الفاطمية : ومن قوله :

لله ما صنعت بنـــا تلك المحـــاجر في المعاجـــر
امضي وأقضي في النفوس من الخناجر في الحنـــاجر
ولقد تعبت ببينكـــم تعب المهـــاجر في الهـــواجر

ففي هذه الأبيات تتجلى شاعريته الصادقة ، ووجدانيته

العذبة ، ويبدو وكأنه شاعر من شعراء الزينة البديعيـــة ، يؤدي التعبير الرقيق ، ويعبر عن العاطفة الرقيقة . وتنسب إليه هذه الأبيات أيضاً :

أطلع الحسن من بينك شمساً :
فوق وردٍ في وجنتيك اطلاّ
فكأنّ الجمال خـــاف على الورد :
جفــافــاً فمدّ بالشعر ظلاّ

وهنا نلمح صورة جميلة رائعة من صور الشعر بديباجة وفن وتشبيه بديع ... يقول : بأنها شبيهة بالوردة المتفتحة أمام أشعة الشمس ، ولكنه يعلن خوفه من ذبولها تحت أشعة الشمس وهنا لا بد له من أن يجعلها تستظل بالمظلة التي هي خصلة شعر الحبيب .

وذكر أن والده « المنصوربالله » أرسله إلى « سوسة » لمقابلة « عسلاج بن الحسن » واستلام بعض الأموال منه ، وهذا الرجل صار وزيراً للمالية مع « يعقوب بن كلس » في عهد « المعز » في مصر ... فكتب إلى والده يقول :

دهــاني بعدك الخطب الجليـــل
فلا حسن لدي ولا جميـــــل
أروح فلا أرى إلاّ ثقيلاً
ومن أنا عنده أيضاً ثقيـــــل

المعز لدين الله والمغرب

قبل ان يخرج « المعز لدين الله » من المغرب حدثت الاحداث التالية :

١ — انتهز الزناتيون فرصة ذهاب « جوهر » إلى مصر فثاروا بقيادة زعيمهم « أبو خزر » الزناتي ، فخرج إليه «المعز » حتى وصل إلى « باغاية » . ففر « أبو خزر » ولكن « المعز » أرسل « زيري بن مناد » وراءه ، فاستسلم وعفى عنه ثم أجرى عليه رزقاً كثيراً .

٢ — ثار « محمد بن الحسن المغراوي » ، وأشعل ثورة في بلاد المغرب الأقصى . ولكن « المعز » خرج إليه بنفسه وتمكن من القضاء على ثورته .

٣ — اتحد الزنايتيون من جديد مع صاحب « المسيلة » واعمال « الزاب » . وأشعلوا ثورة فذهب « زيري » لمحاربتهم ولكنهم قتلوه في إحدى المعارك . فانتقم « يوسف » لأبيه من قبيلة « زناتة » وقتل وسبى الكثير منهم .

التقسيمات الادارية
في المغرب ومصر

قسّم الخليفة « المعز لدين الله » بلاد المغرب إلى قسمين : وكل قسم كان يقسم إلى ولايات ، وهذه الولايات سلّمها إلى « يوسف بن زيري بن مناد » قبل أن يترك المغرب إلى مصر ، وقد اختص بولايتي « طرابلس » ، و« برقة » ثم جزيرة « صقلية » فجعل ارتباطهم به مباشرة . أمّا في مصر فقد قسّمها إلى أربعة ولايات هي :

١ — ولاية « قوص » (أو الصعيد) .
٢ — ولاية « الشرقية » ومن مدنها « بلبيس » « وقليوب ».
٣ — ولاية « الغربية » ومن مدنها « منوف » و« أبيار ».
٤ — ولاية « الاسكندرية » ويضاف إليها البحيرة ومن مدنها « دمنهور ».

وقد كان لهذه الولايات شبه استقلال إداري .

أمّا «القاهرة» فكان عليها والٍ، وهكذا بالنسبة «للفسطاط» ومن جهة ثانية فقد كانت الولاية مقسمة إلى أكوار كما هي الآن أي مديرية .

والحقيقة : فان هذا التقسيم الذي لم تشاهده مصر أو المغرب هو أسلوب جديد بالحكم وانموذج يحتذى به بالاصلاح الإداري ، وتنظيم البلاد .



جوهر الصقلي فاتح مصر

اقترن اسم « جوهر الصقلي » باسم مصر ، فقد عرف بأنه فاتحها، وموّطد أركان الدولة الفاطمية في ربوعها ، وقد تمّ له ذلك بعد أن أخضع مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا وصقلية للدولة « المعز » الفاطمية . وبعدها فلسطين ، والشام والحجاز ، وإذا كان اسم « المعز لدين الله » الفاطمي قد اقترن باسم « القاهرة » . فمن حق اسم « جوهر » أن يقترن بجامعة « الازهر » الذي وضع حجر أساسها ، واقام دعائمهـــا .

نُظر إليه كقائد من القواد العالميين العباقرة أمثال : « صلاح الدين » ، و « خالد بن الوليد » ، و « طارق بن زياد » ، وغيرهم من مشاهير القواد المسلمين .

وُلد بجزيرة « صقلية » . وذكر أنه رومي الأصل مسلم ، بدليل أن والده كان يسمّى « عبدالله » وممّا يثبت صحة

اسلامه تمسكه باهداب الاسلام ، وحرصه على اعلاء كلمته ، واحياء أمجاده .

أخذ بنصيب وافر من الثقافة العربية واللاتينية ، وعرف اللغات السائدة في عصره ، ودرس العربية والرومانية . وتاريخ الحروب ، وأساليب القيادات السياسية والحربية وكل هذا أكسبه مهارة في الحروب التي خاضها ، وخبرة في إدارة البلدان التي افتتحها ، وسياسة الشعوب التي أخضعها لحكمه .

ليس هناك أية مصادر تاريخية تشير إلى السنة التي ولد فيها بالضبط ولكن هناك ما يؤكد بأنه عاش أكثر من ثمانين عاماً ، ولهذا رجح بعض المؤرخين أن تكون ولادته قد وقعت ما بين سنة ٢٩٨هـ إلى سنة ٣٠٠هـ ، ووفاته سنة ٣٨١هـ .

كان مولى من الموالي، وقلمّا اهتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالي الذين يبدو انهم أغفلوا تدوين أنسابهـــم .

شبّ وترعرع في حجر الدولة الفاطمية في المغرب أي بين موالي « المعز لدين الله » . وهناك مصدر يؤكد :

بأن « المعز » اشتراه من أحد أسواق « القيروان » . وكان يعرض بسوق المزاد . وفي ذلك الوقت كان صغيراً ،

ويبدو أن « المعز » توسّم فيه من الذكاء والنجابة ما جعله يضعه بين مواليه ويحوطه برعايته وعطفه ، مضافاً إلى أنه وفّر له أسباب الدرس والتعليم ، ولمّا كبر ظهرت عليه مظاهر العبقرية والرجولة فسلّمه الخليفة « المعز » بعض المسؤوليات في القصر ، وظلّ يتدرج في الرتب حتى اتخذه « المعز » كاتباً سنة ٣٤١هـ .

وفي هذا الوقت أطلق عليه اسم « جوهر الكاتب » . والكتابة في ذلك العصر هي إحدى المناصب العليا التي كان الخلفاء لا يسندونها إلاّ لمن أنسوا فيهم الكفاءة والمقدرة على معالجة الأمور ، أو بالأحرى هي الخطوة الأولى للوزارة .

في سنة ٣٤٧هـ رقّاه الخليفة « المعز » إلى منصب الوزارة ، وبعد ذلك بفترة قصيرة عهد إليه بمهمة قيادة الجيوش العامة ، وفي العام نفسه أرسله على رأس جيش كثيف إلى المغرب الأقصى لاخضاع الثائرين وإعادة البلدان المنفصلة إلى حظيرة الدولة ، وأمر بأن ينضم إلى قيادته « زيري بن مناد » أمير « صنهاجة » ، و « جعفر بن فلاح » أمير « كتامة » ، فسار إلى « تاهرت » ، واستولى عليها ثم استأنف المسير إلى « فاس » فناجز أهلها مدة ثم تركها لاستعصائها عليه ، وبعد ذلك تابع فتوحاته في بلاد المغرب . . . من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي ، ومن هناك أرسل إلى الخليفة

« المعز لدين الله » بعض السلال من مياه المحيط المليئة بالسمك للدلالة على أنه أخضع المغرب الأقصى بكامله لحكم الفاطميين ، وبعد ذلك عاد إلى « فاس » وفتحها عنوة . واستولى على كل ما فيها ، كما قبض على صاحبها وارسله مع صاحب «سجلماسه » بقفصين إلى « المعز لدين الله » ، في تلك الفترة أطلق عليه الخليفة « المعز » اسم « جوهر » القائد .

ذكر التاريخ :

ان « جوهراً » مرض مرضاً شديداً بعد عودته من المغرب . فحزن « المعز » وعاده بنفسه وهذا شرف لا يناله إلاّ المقرّبون . فلمّا عاد من زيارته قال :

« جوهر » لا يموت وستفتح مصر على يديه . . . وقد تحققت نبوءة « المعز » فشفي « جوهر » من مرضه وتمّ فتح مصر على يديه .

أجل . . . رأى « المعز » في « جوهر » ذلك الرجل الذي يصح الاعتماد عليه لفتح البلاد المصرية ، كيف لا ؟ وقد أثبت في المعارك التي خاضها في المغرب عن أهلية وكفاءة مقرونة بشجاعة ودراية . وبعد نظر في ابتداع الخطط الحربية الناجحة . ويكفي أن يكون قد أخضع جميع بلاد المغرب

من أقصاها إلى أقصاها بمدة عام واحد ، وقبض على رؤساء الثائرين ، وأشاع الأمن والاستقرار ، واكتسب ثقة « المعز » الذي بالغ في اكرامه ، وخاصة حينما خرج إلى مدينة «رقادة» لتوديعه ، ومباركته هو وجيوشه . والمشهور أن « المعز » قال ساعتئذ :

« والله لو خرج « جوهر » وحده لفتح مصر ، وليدخلن إليها بالاردية من غير حرب ،ولينزلن في خرابات «ابن طولون» ويبني مدينة تقهر الدنيا » .

ولم تقتصر ثقة « المعز لدين الله » به عند هذا الحد . . . فقد ذكر التاريخ :

انه أمر أولاده ، ورجالات دولته بالترجل بين يدي « جوهر » عند ذهابهم لتوديعه وهو يتأهب للمسير إلى فتح مصر ، كما أمر صاحب « برقة » بالترجل « لجوهر » عند لقائه ، وتقبيل يديه ، وقد كبر ذلك على الوالي ، وبذل مائة ألف دينار على أن يعفى من ذلك ، ولكنه لم يظفر بشيء . ويضيف التاريخ :

ان الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » منح « جوهر » كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه .

اجل... خرج «جوهر» من القيروان في ١٤ من شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال على الجمال، وجند يربو عدده على المائة ألف، وخيل يزيد عددها على عدد الجند بكثير. وكان يرافقه في البحر الأسطول المصري وعليه المؤن والذخيرة والتموين. وذكر التاريخ:

أن «أبا مسلم جعفر العلوي» الذي تولى أمر المفاوضة للصلح بين المصريين والفاطميين سئل عند رجوعه عن عدد عسكر «جوهر» فقال:

مثل جمع عرفات كثرة وعدة.

وفي هذا يقول الشاعر «ابن هانيء» الأندلسي الذي خرج أيضاً لوداع «جوهر»:

رأيتُ بعيني فوق مـــا كنت أسمعُ
وقد راعني يوم من الحشر أروعُ
غداة كأنّ الأفق سدّ بمثلـــه
فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

وقال في «جوهر»:

إذا سار في ارض بناها مدائنـــاً
وإن غاب عن أرضٍ ثوت وهي بلقع

تسير الجبال الجامدات بسيره

وتسجد من أدنى الحفيف وتركع

وصل « جوهر » إلى « برقة » . . . وكان قبل عامين من قدومه ، قد أمر بإنشاء الطرق وشقها ، وتعبيدها ، وحفر الآبار في الطريق إلى مصر . . . حيث الصحراء والواحات . . . ولم يتقدم إلاّ بعد أن تأكد ان الآبار قد امتلأت بمياه الأمطار . كما أقام الخيام على كل مرحلة وبمجرد وصوله إلى « برقة » خرج الوالي ، وأدى التحية على النحو الذي أمر به « المعز » ، ثم استأنف المسير إلى « الاسكندرية » ، ففتحت له الأبواب دون مقاومة ، فدخلها ، وأذاع على الجند أمراً بعدم التعرض للأهلين ، وحرّم عليهم الدخول إلى المنازل ، أو السرقة ، أو النهب ، أو الاعتداء على أي كان ، وفي هذا تتجلّى عظمة « جوهر » ، وبعد نظره ، وسياسته الحكيمة ، ففي هذا الحال أعطى البرهان على أنه القائد الذي يعرف كيف يضبط جنوده ، ويمنع تصرفاتهم ، وأعمالهم التي اعتاد الجنود أن يرتكبوها عندما يدخلون البلدان فاتحين . ولكن « جوهر » كان يغدق على جنوده الأموال والعطايا . والارزاق مماّ يجعلهم في غنى عن أية أعمال أخرى .

وفي « الفسطاط » اضطرب الأهلون حينما علموا باستيلاء

« جوهر » على «الاسكندرية» فعقد الوزير « جعفر بن فرات »، مجلساً من كبار رجال الدولة للنظر في حالة البلاد العامة ، وفي نهاية المطاف أجمع رأيهم على طلب الصلح ، وندبوا الوزير « ابن الفرات » للتفاوض مع « جوهر » في شروط الصلح ، وطلب الأمان على الأرواح ، والأملاك ، فأناب الوزير عنه « أبا جعفر مسلم العلوي » وبعض الوجوه الآخرين ممن لهم مكانة عليا عند المصريين ، وممن يرضى عنهم الفاطميون ، فــذهبوا إلى « جوهر » وكان في بلـــدة « تروجة » قرب « الاسكندرية » . . . وهناك قبل ما عرضوا عليه . . . وبعد هذا أذاع على المصريين هذا البيان :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من « جوهر » الكاتب عند أمير المؤمنين « المعز لدين الله » صلوات الله عليه . . . إلى أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم . . . انه ورد من سألتموه الترسل والاجتمـــاع معي ومعهم : « أبو جعفر مسلم » الشريف أطال الله بقاءه ، « وأبو اسماعيل الرسّي » أيده الله ، « وأبو الطيّب الهاشمي » أيّده الله ، « وأبو جعفر أحمد بن نصر » أعزّه الله ، والقاضي أعزّه الله .

وذكروا عنكم انكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانيكم

في أنفسكم واموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرّفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارّعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة إلاّ ما فيه اعزازكم ،وحمايتكم والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدي، واستطال عليكم المستذل ، والمتعة نفسه بالاقتدار على بلادكم في هذه السنة ، والتغلب عليه ، واسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه باخراج العساكر المنصورة ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفّرة دونكم ، ومجاهدته عنكم ، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمّهم الخزي ،وشملتهم المذلة ،واكتنفتهم المصائب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم، وعظم ضجيجهم . وعلا صراخهم فلم يفتهم إلاّ من أرمضه أمرهم ، وأمّضه حالهم ، وأبكى عينيه ما نالهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فربما بفضل الله عليه ، واحسانه لديه وما عوّده وأرجاه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم ، وان يؤمن من استولى عليه المهل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل وأثر اقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فرد منه وحقوقه لخوف المستولي عليهم ، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم . وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرت به عادته من اصلاح الطرقات . وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنين ، ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالاطعمة والاقوات إذ كان قد انتهى اليه صلوات الله عليه إنقطاع طرقاتها لخوف مارّتها إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تجديد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها . إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا اصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ، وما أعزّ به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفي الأذى ورفع الحزن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقاد الاحوال وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين

تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجري أمورهم إلاّ على ما لمَّ شعثهم وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم وألّف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من اسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضي صلوات الله عليه باثباتها عليكم ، وان أجريكم في المواريث على كتـــاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفي بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وان أتقدم في رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن أعطي مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها ارزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال لا باحالة على من يقبض منهم وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما ضمّنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وأصحابكم أجمعين من أنكم ذكرتم وجوهـاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم فذكرتها اجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ، فلن يكن لذكرها معنى ، ولا في نشرها فائدة . إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهي اقامتكم على مذهبكم وان تتركوا على ما كنتم عليه من اداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم

على مـــا كان عليه سلف الائمة من الصحـــابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الامصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجري الاذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطرة قيام ولياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه (صلعم) في سنته ، وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه .

ولكم عليّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الاعوام في انفسكم واموالكم واهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجني ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى أذاكم ، ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ، ولا في الاستطالة على قويكم فضلاً عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خبره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليـــه .

ولكم عليّ الوفاء بما التزمته ، وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمة أنبيائه ورسله وذمة الائمة موالينا أمراء

المؤمنين قدّس الله أرواحهم ، وذمة مولانا أمير المؤمنين «المعز لدين الله » صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إليّ وتسلمون عليّ وتكونون بين يديّ إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحفظونّ وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتكم به . . . وفقكم الله وأرشدكم أجمعين .

« جوهر الصقلي »

وبعد قراءة هذا البيان أدّب « جوهر » لأعضاء الوفد مأدبة غداء تمكيناً لاواصر الصداقة والمودة . وتأليفاً لقلوب المصريين عامة .

وانا حين ندرس هذه الوثيقة القيمة من الناحية العامة نرى أن القائد الكبير قد تعهد للمصريين :

أولاً — بنشر العدل وبث الطمأنينة في النفوس ، وحماية مصر من هجمات المعتدين والطامعين — كما تعهد بحماية الأهلين من قطّـــاع الطرق ، والعابثين بالنظـــام والأمن ، لأن أوضاع مصر الأمنية كانت في تلك الفترة سيئة ، وذلك بسبب انتشار الأوبئة والقحط والمجاعة والعوز وانخفاض منسوب مياه النيل .

ثانياً — ترك العهد للمصريين الحرية بإقامة شعائرهم الدينية ، وتعهد لهم بإصلاح مساجدهم وترميمها . وفرشها ، وتحسين أوضاعها .

ثالثاً — تعهد بإصلاح الطرق ، وتحسين السكة ، وإصلاح الجسور ، وتجميل البلاد .

وفي اليوم السابع من شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ عاد الوفد إلى « الفسطاط » يحمل البيان ، فلم يقبل به الأهلون ، وصمم الاخشيديون وجماعة « كافور » وأتباعهم على التصدي والدفاع ، ومواصلة القتال ، وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى « الجيزة » واستعد لملاقاة « جوهر » .

وفي الحادي عشر من شعبان سنة ٣٥٨ وصل « جوهر » الى « الجيزة » ، وسار إلى « منية الصيادين » ثم استولى على المخاضة « بمنية شلفان » حيث عبر النيل إلى مصر ، فلحق به « جعفر بن فلاح » القائد الكتامي المشهور ، فاستحثه « جوهر » على عبور النهر مع المغاربة ليكون قدوة لهم وقال له :

لهذا اليوم أرادك « المعز » ، فخلع « جعفر » ثيابه وقطع النهر ، فتتبعه المغاربة ، وهناك التقى بالإخشيديين ، ودار القتال ، وبساعات قلائل دارت الدائرة على المصريين ، فقتل منهم خلق كثير ، وكان من أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالمصريين

أن عبر أكثرهم ، وسلّموا أنفسهم إلى « جوهر » ، أمّا البقية فرابطوا على المخاضة لحراستها ، وهنا لم يطق « جوهر » صبراً فخلع ملابسه ، وعبر النيل مع رجاله في السفن ، ثم انقضوا عليهم ، وشتتوا شملهم ، وبذلك تمّ فتح مصر ، ودخلت في حوزة الفاطميين بمهارة « جوهر » وحسن قيادته وسياسته .

لقد توقع المصريون بعد تلك المعارك ، وبعد نقضهم للمعاهدة أن يعاملهم « جوهر » معاملة من فتحت بلادهم عنوة ، فذهبوا إلى « أبي جعفر مسلم العلوي » وطالبوه بأن يتدارك الأمر مع القائد « جوهر » ، فهرع إليه وبعد مباحثات طويلة قبل منه « جوهر » ، وأمر بأن يعامل المصريين معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، وهكذا تألفت قلوبهم ، وظهرت من جديد محبتهم ، ودانوا له بالطاعة ، ورضوا بحكمه ، وفي ذلك الوقت أصدر أمره بالعفو عن جميع المصريين الذين اشتركوا بالقتال ، كما أفرج عن الأسرى وأذاع إلى جانب ذلك أمراً بالتحريم على الجند القيام بأي عمل من أعمال الشدة والعنف ، كما أذاع بياناً جديداً على أهل مصر ضمن لهم فيه استتباب الأمن ، وهذا هو البيان :

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال بقاءه ، وأدام

عزه ، وتأييده ، وعلوه ، وهو المهنأ به من الفتح الميمون ، فوقفت على ما سأل من إعادة الأمان الأول ، وقد أعدته على حاله ، وجعلت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى ، وكيف أحب ، ويزيد على ما كتبه كيف شاء ، فهو أماني ، وعن إذني ، وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وقد كتبت إلى الوزير أيّده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ، ويعمل الشريف على لقائي في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلو من شعبان » .

وفي السابع عشر من شعبان ابتهج الناس ، وهدأت المدينة ، وعاد الأمن إلى نصابه وخرج « أبو مسلم العلوي » ، والوزير « جعفر بن الفرات » ، وسائر الأشراف والقضاة ، والعلماء ، والتجار إلى « الجيزة » ، فلما وصلوا أقبل « جوهر » في عسكره ، ووقف الشريف عن يمينه ، والوزير « ابن الفرات » عن يساره وسلّم الناس عليه ، ولمّا غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر ، وفي أيديهم الصناديق المحملة بالأموال على ظهور البغال ، ثم أقبل « جوهر » في حلة مذهبة في جمع من فرسانه ورجاله وعسكر بجيشه في الموضع الذي اختطّ به مدينة « القاهرة » ، وحين ذهب المصريون في اليوم التالي لتهنئته وجدوه قد حفر أساس قصر « المعز » .

وهكذا زال سلطان الاخشيديين والعباسيين معاً عن مصر ، وأصبحت البلاد ولاية فاطمية ، فغدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسي غرباً حتى البحر الأحمر شرقاً ، ونافست « القاهرة » « المعزية » عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة « بغداد » المتداعية ، وقد كان لتلك المنافسة أبعد الأثر في بعث الحضارة الإسلامية ، وتعزيز انطلاقها في العالم .



النظام الاداري وسياسة جوهر في مصر

وضع «جوهر» الصقلي في مصر سياسة عامة تقضي بأن يحل المغاربة وهم الذين أقاموا على أكتافهم الدولة الفاطمية محل المصريين في المناصب المهمة ، والمراتب العليا ، ومن المعلوم أن «جوهراً» قد فوّض إليه الخليفة أمر مصر ، وإدارة شؤونها ، والتصرف بما يراه مناسباً فيها لتوطيد الأمن والاستقرار ، وقد ظهر أن في سياسته تلك التي اتبعها الكثير من الحكمة ، وبعد النظر ، فقد أفسح المجال كما ذكرنا أمام المغاربة فرصة الدراسة والتمرين على أساليب الاضطلاع بالمسؤوليات ، والنظم الإدارية التي كانت تسير بموجبها مصر في عهد الاخشيديين ، وقد رأى أن ينفّذ هذه السياسة خطوة خطوة حتى لا يثير شعور المصريين دفعة واحدة وهم الذين كانوا يضطلعون بإدارة المناصب العليا في بلادهم ، وفي هذه

الحالة تتعطل الأعمال الإدارية ، وتصاب المصالح العامة بالشلل ، ثم قد ينجم عن ذلك اضطراب حبل الأمن ، والنظام ، وبالفعل نجح « جوهر » في سياسته ، ونفّذ برنامجه بصمت وبهدوء .

ففي أوائل سنة ٣٦٢ هـ تغيرت إدارة المناصب ، فقد كانت هناك داراً للشرطة في مدينة « الفسطاط » ، ولمّا استولى « جوهر » على مصر جعل مقر الشرطة العليـــا في « القاهرة » وقد ذكر التاريخ :

إن صاحب الشرطة قد توفي في اليوم الذي وصل فيه « جوهر » إلى مصر ، فأسندت هذه الوظيفة إلى أحد المصريين « جبر » وبقيت دار الشرطة السفلى في « الفسطاط » حيث تقلدها « عروبة بن إبراهيم » ، و « شبلي المعرضي » ، وقد صرف « جوهر » بني « عبد السميع » عن الخطابة بعد أن تقلّدوها أربعاً وستين سنة ، وأسندها إلى « جعفر بن الحسن الحسيني » في جامع « عمرو » . كما أسندت إلى أخيه المهمة هذه في الجامع « الأزهر » ، وتقلّد بيت المال « الحسين بن المهذب » ، وهؤلاء جميعاً من المغاربة الفاطميين ، وهكذا قلّد المغاربة أيضاً وعلى مراحل جباية الخراج ، والوزارة ، والحسبة ، والقضاء .

ومن تدابيره الحكيمة التي تظهر عبقريته ، وبعد نظره أنه عندما وقعت الأزمات المعيشية والقحط ، والمجاعة أنشأ مخزناً عاماً للقمح « مؤسسة حكومية » مهمتها بيع هذه المادة ، وعهد برقابتها إلى المحتسب ، فمنع احتكار الحبوب ، والتلاعب بأسعارها ، وكان يتولّى جباية الخراج في مصر حين فتحها « علي بن يحيى بن العرمرم » ، فأقره « جوهر » في منصبه ، ولكن لم يكد يمضي شهر على ذلك حتى أشرك معه « رجاء بن صولاب » وهو مغربي ، وأخيراً جعل موظفي الخراج تحت إشراف « يعقوب بن كلس » ، و « عسلوج بن الحسن » (المغربي) فصرفا « ابن العرمرم » ، و « ابن صولاب » ، وقسّما جباية الخراج إلى قسمين : أحدهما بيد « علي بن طباطبا » ، و « عبد الله بن عطاء الله » ، وثانيهما بيد « الحسن ابن عبد الله » ، و « الحسين بن أحمد الروزباري » .

ومن تدابير « جوهر » التي قصد فيها تنظيم حالة مصر الاقتصادية أن عهد إلى « يعقوب بن كلس » و « عسلوج بن الحسن » وكلاهما من أعاظم . رجال المال والاقتصاد بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعا أقسامه المختلفة في مكان واحد ، كما سنّا نظاماً جديداً لتقدير الأملاك ، وتحديد الضرائب التي كانت تفرض على كل منها ،

كما وضعا نظاماً دقيقاً لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها ، وقد اهتمّت الدولة بتحصيل كل ما كان متأخراً منها ، كما عنيت بدراسة الشكايات التي كانت تقدم إليها فيما يختص بجباية الضرائب ، وسلكت في تنفيذ النظام الجديد سبيل الحزم والعدل ، فحمت دافعي الضرائب من شطط عمال الجبـاية بهم ، فكان من أثر هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة ان زادت موارد البلاد ، وعمّ الرفاه ، والازدهار .

وممّا يجدر ذكره : أن المحتسب عند دخول « جوهر » إلى مصر كان مصرياً ، فأقـاله « جوهر » ، وعيّن مكانه رجلاً مغربياً ، ولم يعترض أحد لأنّ « جوهر » قد وضع أسس سياسة عامة للبلاد المصرية ، ولا رجوع عنها ، وهي السياسة التي سار عليها الفاطميون بحكمهم للأقاليم ؛ فكانوا لا يتسامحون مع كل من يحاول معارضتهم ، والعبث بالنظام ، أو الإخلال بالأمن .

وبالنسبة للوزارة فقد كان يتقلدها عند فتح مصر الوزير « جعفر بن فرات » ، وهو الشخصية السياسية المعروفة بنشاطها في عهد العباسيين والاخشيديين ، وقد أبى « جوهر » في بادىء الأمر أن يلقبه بالوزير ، وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب بعد أن رأى منه مـا يشبه الإعراض ، إلاّ أنه أقره في منصبه

تمشياً مع خطته السياسية العامة ، وبعد فترة سلبه الصلاحيات بالتدريج ، ولم يبق له من منصبه إلاّ الاسم فقط .

ويذكر التاريخ :

إنه عيّن له خادماً يبيت معه في داره ، ويلازمه في غدواته وروحاته ، ويراقبه في حركاته وسكناته ، ممّا جعله لا يستطيع التعبير عن رأيه ، وهناك مصادر تشير إلى أنه اعتذر أكثر من مرة عن البقاء في منصب الوزارة ، وخاصة بعد وصول « المعز لدين الله » إلى مصر . . . ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً : أنه لمّا علم بوصول « المعز » إلى « الاسكندرية » أبى أن يخرج إلى استقباله ، فرأى كبار المصريين في ذلك إحراجاً لهم ، وفرصة قد يتخذها « المعز » لاضطهادهم ، فجاءوا إليه وأرغموه على الخروج لاستقبال « المعز » . . . وهنا أذعن لطلبهم وخرج على رأسهم لتأدية واجب الترحيب بالخليفة الجديد .

أمّا قاضي القضاة فكان « أبا طاهر » وهو من المصريين السنيين ، وقد رأى « جوهر » أن عزله ، وإحلال قاضي شيعي محله قد يجر إلى الكثير من التقولات ، لهذا أقرّه في منصبه ولكنه في الوقت نفسه عمل على إضعاف نفوذه إلى حد بعيد .

غارة قرمطية على مصر

كان « جوهر » يحسب حساباً كبيراً للقرامطة ، ويتوقع من هذه المجموعة العسكرية الظافرة مهاجمة مصر ، وخاصة بعد انتصاراتهم الساحقة في الأقاليم العباسية ، والمشرقية ، وقد صدق حدسه ، فإن طلائعهم قد أخذت بالانحدار من ناحية المشرق عبر فلسطين بعد أن حققت انتصاراً عجيباً على الفاطميين في الشام ، واستردتها منهم ، بعد أن تمكنت من قتل قائدهم الكبير « جعفر بن فلاح » .

وهكذا سار « الحسن بن أحمد » (الأعصم) زعيم القرامطة إلى « الرملة » فانضم إليه الكثير من الاخشيديين ، وكان واليها الفاطمي « سعادة بن حيّان » قد فرّ إلى « يافا » ، فاستولى « الحسن » على « الرملة » ومنها تابع المسير إلى مصر فوصل إلى « القلزم » (السويس) سنة ٣٦١ هـ وهناك أسر واليها « عبد العزيز بن يوسف » ونهب كل ما كان فيها من

الخيل والإبل والأرزاق والأموال ، ومنها انتقل إلى « الفرما » ودخلها على حين غفلة ، وفي هذه الأثناء اعترفت مدينة « تنيس » بسلطانه ، بعد أن خرجت على واليها الفاطمي ، ثم وزعت المنشورات في جامع عمرو . وكانت تحض الناس على العصيان والثورة . . . بعد هذا توغل « الأعصم » داخل البلاد . . . وأخيراً عسكر بجيشه في «عين شمس» (هليوبوليس) وأرسل إنذاره باحتلال « القاهرة » .

وهنا تحرّك «جوهر» . وخاصة بعد أن عرف أن « الحسن » قد وصل إلى برزخ السويس فاستعد للقتال ، وحفر خندقاً ، وأقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الاخشيد وبنى قنطرة على الخليج ، ووزّع السلاح على المغاربة ، وعلى المصريين المؤيدين ، ثم أرسل رجالاً من المصريين إلى معسكر القرامطة فتظاهروا بالسخط على الفاطميين ، وأظهروا رغبتهم في التخلص من حكمهم . وكانت مهمتهم زرع بذور الفتنة بين القرامطة والاخشيديين ، وقد أثمرت هذه الدعاية ، وكان أن انتشرت الفوضى في جيوشهم . ودبّ الانقسام ، والنزاع على المناصب والغنائم ، والأسلاب .

ولمّا علم «جوهر» بما وصل إليه الأمر في جيش القرامطة ، خرج إليهم ، والتقى الفريقان عند باب « القاهرة » ، ودارت

معارك رهيبة قتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلّت الحرب سجالاً بينهما إلى حين محاولة زعيم القرامطة الاستيلاء على الخندق عنوةً ، وكان باب « القاهرة » حنيئذ مغلقاً . فلمّا غربت الشمس أمر « جوهر » بفتح الباب ، فابتدأ القتال الفعلي ، واستعرت نار الحرب عنيفة ، وكان « جوهر » قد ترك وراء الباب كتائب لم تخض المعركة فنزلت إلى الميدان ، ووجدت أمامها قوى منهوكة ، وهكذا تمكنت من إلحاق الهزيمة بها وردّتها على أعقابها حتى « القلزم » .

ويذكر التاريخ :

إن « جوهراً » أظهر شجاعة نادرة ومهارة فائقة . وكانت خطته استدراج القرامطة حتى أوقعهم في الفخ ، ثم حمل عليهم حملة أخيرة صادقة ، وردهم على أعقابهم مدحورين مهزومين ، أمّا الضحايا فكانت تملأ السهل . . . وبعد أن حقق « جوهر » الانتصار أذاع أمراً على العموم وأعطى فيه مكافأة ثلاثة آلاف دينار ، وخمسين خلعة ، وخمسين سرجاً لكل من يأتي بقرمطي ، حيّاً أو ميتاً ، وفي هذا يتجلّى حنق « جوهر » على الجيش الذي كاد يستولي على مصر ، ويذيقها أنواع المحن والويلات ، ومن جهة ثانية أباح وسمح للمصريين بالاستيلاء على كافة الأسلاب والغنائم التي تركوها في ميدان القتال .

بعد انتصار « جوهر » الحاسم على القرامطة كان عليه أن ينتقم من الاخشيديين المقيمين في مصر ، وخاصة الذين ساهموا مساهمة فعّالة بمساعدة القرامطة ، وهكذا شنّ عليهم حملة شعواء ، وتمكنّ من قتل وأسر عدد كبير منهم . وذكر التاريخ :

إن « جوهر » نادى الاخشيديين ، ودعاهم لتناول الطعام على مائدته ، وحين تمّ اجتماعهم قبض عليهم ، وقيّدهم ، وحبسهم وكانوا ألف وثلاثمائة مقاتل .

ولمّا علم « المعز لدين الله » ، وهو ببلاد المغرب بخبر هجمات القرامطة على مصر أرسل جيشاً كبيراً من « القيروان » تحت قيادة « الحسين بن عمّار » فازدادت معنويات « جوهر » العسكرية ، وهاجم مدينة « تنيس » ، وانتقم من سكانها الذين والوا القرامطة ، وانضموا إليهم ، أمّا « الحسن الأعصم » فقد عاد بخفي حنين ، وارتدّ إلى « دمشق » .

مصر قبل الفتح الفاطمي

كانت مصر قبل الفتح الفاطمي تحت حكم الاخشيديين أي منذ سنة ٣٢٣ هـ حتى سنة ٣٥٨ هـ . رأس هذه الأسرة ، ومؤسس إمارتها هو « محمد بن طغج الاخشيدي » وكان قد تولاها للمرة الثانية سنة ٣٢٣ هـ ، فنعمت مصر بعهده بالهدوء والطمأنينة ، وكان الأمن والرخاء مستتباً ، شاملاً ، والبلاد تنعم بالازدهار والرفاه ، كما كان الجيش في وضع ممتاز من التماسك والنظام لأن الدولة العباسية كانت توليه عنايتها ، وتتطلع إليه ، وتعتبره من جيوشها المؤهلين لكل غزو وفتح ووقوف بوجه الهجمات ، ولهذا استطاعت مصر أن تقف في وجه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم ، وذلك منذ عهد « عبيد الله المهدي » . ومن الجدير بالذكر إن مكانة الاخشيد ازدادت ، ونفوذه تعاظم ، حينما تمكن من صد جيوش الفاطميين الذين أغاروا على مصر في عهد الخليفتين الفاطميين « المهدي » ، و « القائم بأمر الله » .

أجل . . . كانت الصلة بين الاخشيد والعباسيين على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم ، وظلّت أواصر هذه الصلة قوية ومتينة حتّى جاء مندوب العباسيين « ابن رائق » وبجعبته مشروع صرف الاخشيد عن مصر بأمر الخليفة العباسي ، وهنا ثارت ثائرة الاخشيد ، فخرج عن طاعتهم ، وأمر بإلغاء الخطبة للعباسيين . وأحلّ محلها اسم الفاطميين . وقد اعتبر الخبراء هذه الخطوة مقدمة لوصول الفاطميين إلى هذه البلاد . ولكن الدولة المصرية لم تلبث أن ضعفت في أواخر عهده وذلك على أثر تنازع السلطة في بغداد بين «توزون» و «البريدي» اللذين كانا من قواد الاتراك . وهنا لم يجد الخليفة العباسي بداً من الاستنجاد بالاخشيد . فسار إلى الشام ، والتقى به في مدينة « الرقة » وهناك عرض عليه البقاء معه في الشام . أو الذهاب إلى مصر ، ولكنه لم يقبل ، وكانت أن دارت المفاوضات أخيراً بين الاخشيد و « توزون » الذي تعهد بحماية الخليفة ، وعندئذٍ عاد إلى « بغداد » كما رجع الاخشيد إلى مصر . أما « توزون » فلم يرعَ للعهود حرمة ، وكان من أمره أن سمل عين الخليفة وحبسه ، ثم قتله فيما بعد ، وجاء بعد ذلك بنو « بويه » لنصرة الخلافة العباسية التي أصبحت ألعوبة بأيديهم بعدْ فترة قصيرة .

ذكر التاريخ :

إن الاخشيد مات في فلسطين ، ودفن في بيت المقدس سنة ٣٣٤ هـ فخلفه ابنه الأكبر « أنوجور » وكان في الخامسة عشرة من عمره ، فقام « كافور » بتدبير أمره ، وكالة ، و « كافور » كان عبداً خصياً مملوكاً لأحد المصريين ، فاشتراه « ابن طغج » وكان وقتئذٍ من كبار القواد بمبلغ ثمانية عشر ديناراً . وذكر بعضهم :

ان أحد أصدقائه أرسله إليه هدية ؛ فتوسّم فيه الذكاء وأبقاه عنده ، ولمّا آلت ولاية مصر إليه ترقّى « كافور » في بلاطه ، وقد اختصه الاخشيد من بين عبيده ، ومنحه ثقته ثم سمّاه « أتابك » وهذه الكلمة معناها باللغة التركية « مربي الأمير » « فأتا » معناها « الأب » و « بك » معناها « الأمير » والمعنى : أنه مربي ولديه « أنوجور » ، و « أبو الحسن علي » . . . ويروى ان الاخشيد كان يقول :

« والله لأورث دولة ابن طغج لهذا العبد »

ولمّا توفي الاخشيد خلفه « أنوجور » ، فقبض « كافور » على زمام الأمور في مصر والشام والحجاز ، واستهلّ عهده بالقضاء على الثورة التي قام بها المصريون في وجهه ، كما

طرد «سيف الدين الحمداني» من دمشق ، وحال بينه وبين التفكير في العودة إليها ، ونتيجة لهذه الانتصارات خوطب بالأستاذ ، ودعي له على منابر مصر والشام والحجاز باسم «أبي المسك كافور» وبالفعل اكتسب محبة القواد ، وكبار رجال الدولة بما كان يغدقه عليهم من العطايا والهبات .

وبعد أن اتسع نفوذه ، ظهرت الوحشة بينه وبين «أنوجور» فعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر ، وانقسم الجيش إلى فريقين : الكافورية والأخشيدية ، ولكن «أنوجور» مات سنة ٣٤٩ هـ ولم يتجاوز التاسعة والعشرين . وقيل ان «كافور» دسّ له السم فقتله ، فأقام «كافور» «علي بن الاخشيد» مكانه ، وكان في الثالثة والعشرين من عمره . وهذا الأمير لم يتمكن من عمل شيء ، لأن «كافور» عمل على شلّ حركته وتجميده ، وعيّن له أربعمائة ألف دينار راتباً سنوياً كما منع الناس من الدخول عليه ، والاتصال به ، ويقال ان «علي» اعتلّ بعلة أخيه ومات سنة ٣٥٥ هـ . وبعد موته منع «كافور» تعيين ابنه «أحمد» مكانه بحجة أنه صغير السن ، وفي هذا العام أرسل الخليفة «المطيع» العباسي قراراً بتقليد «كافور» ولاية مصر والبلاد التي تحت سلطانه .
وهكذا استتب له الأمر ، ولكن لم يكد «كافور» يتمتع

بكل هذا حتى كان « جوهر » الصقلي يدق أبواب مصر . ويذكر التاريخ :

إن الجيوش الفاطمية ما كادت تصل إلى الواحات ما بين « برقة » و « الاسكندرية » حتى جهز « كافور » جيشاً لمحاربتهم ، ولكنه ندم بعد ذلك واستقبل وفداً من دعاة الفاطميين ورضي بالتعاون معهم ، وكان عمله هذا سبباً بلجوء اعداد كثيرة من الجنود والقواد الاخشيديين والكافوريين إلى جيش « جوهر » ، ويصادف كل هذا الحالة السيئة التي سادت البلاد المصرية في تلك الأيام الأخيرة من حكم « كافور » فقد انتاب مصر البؤس والغلاء ، وكانت أعظم محنة انخفاض منسوب مياه النيل الذي بدأ سنة ٣٥١ هـ ، وما تبعه من تفشي الأوبئة وانتشار القحط ، والغلاء ، فندر وجود القمح والطحين وفشا الموت لدرجة أن عجز الناس عن تكفين الموتى ، وعن مواراتهم التراب ، حتى ذكر أنه كان يلقى بجثث الموتى في النيل لكثرتها ، وعجز « كافور » عن صد هجمات القرامطة على الشام سنة ٣٥٢ هـ ومنعهم من نهب قوافل الحجاج ، مضافاً إلى كل ذلك عجزه عن الدفاع عن حدود مصر من جهة « النوبة » ، وكان قد ذكر أن طلائع جيوشهم وصلت إلى « اخميم » ، ويجب أن لا ننسى أن « كافور » قد عجز

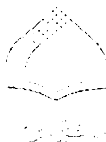
أيضاً عن دفع رواتب حراسه وغلمانه ، فثاروا عليه ، وتنكروا له .

مات « كافور » سنة ٣٥٧ هـ وكان في الستين من عمره ، بعد أن حكم إحدى وعشرين عاماً ودفن في دمشق ، وقد ترك مصر في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب .

أمّا الدولة العباسية فقد كانت تعاني الى درجة كبرى من الانحلال والضعف ، فالفوضى والاضطراب يسودانها من كل جانب ، فانتفضت أطرافها . واقتطعت منها دويلات ، وإمارات ، وولايات وثار بعض الولاة ، وكثرت الغارات ، وغدا الخليفة ألعوبة بأيدي بني « بويه » يحركونه كالدمية كيفما يشاؤون .

ولمّا مات « كافور » اجتمع رجال البلاط في مصر ، وولوا « أبا الفوارس أحمد » حفيد الاخشيد عرش مصر ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، واتفق أن جاء إلى مصر من الشام « أبو محمد الحسن بن عبيد الله » أخ الاخشيد فاراً من وجه القرامطة ، فسلّمه المصريون قيادة الجيش ولكنه استبدّ بالأمر ، وقبض على الوزير « جعفر بن فرات » ، واستولى على أمواله ، وعاد إلى الشام وهكذا ظلّت مصر بعد رحيله

نحواً من خمسة أشهر تحت ادارة « ابن الفرات » ، ولكن في حالة من الفوضى لدرجة أن هذا الوزير عجز عن إقرار الأمن، وتخفيف ما يعانيه الشعب من المحن والمصائب ، والويلات ، وكل هذا مهّد السبيل أمام القائد الكبير « جوهر » الصقلي ، فدخل مصر فاتحاً ، وتمكّن من إخضاعها ، وإرساء قواعد الدولة الفاطمية .



القائد المظفر

لم يكن «جوهر» الصقلي قائداً عادياً ... فالتاريخ الذي أفرد له الصفحات الطوال وضعه في عداد القواد العالميين الذين يضمون إلى جانب خبرتهم العسكرية معرفة بإدارة البلاد ، وسياسة الشعوب ، واختيار المعاونين والأصحاب ، وعندما اختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال ، وذهبوا فيهم مذاهب شتى ... قال بعضهم :

إن الرجل العظيم هو الذي يخلق الظروف ، ويرغم الحوادث على السير طوع إرادته ، ويضطرها إلى المضي في الطريق الذي يشقه لها . وقال آخرون :

إن الرجل العظيم هو ابن الساعة ، ووليد الظروف تخلقه الأيام ، وتنشئه الحوادث وتهيء له الفرص ما لم تهيء لغيره ، وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تضن به على سواه .

ولا غروَ فقد كان «لجوهر» من المواهب التي طالما

أملت ارادتها على الأيام ، وفرضت رأيها على الحوادث ما جعل منه قائداً موفقاً ، وسياسياً حكيماً إلاّ أن هذا وحده لا يكفي ، فلو لم تتح له الظروف الاتصال « بالمعز لدين الله » ، وهو لا يزال ببلاد المغرب فيوليه ثقته ، ويمنحه إمرة جيوشه ، وقيادتها لتوطيد الحكم الفاطمي في بلاد المغرب لما ظهرت مواهبه النادرة وقوة شكيمته وحكمته ، ويكفي أن نعلم أنه أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان « المعز » في أقل من سنة ، بينما عجز الكثيرون عن ذلك في أعوام عديدة ، وهكذا تكاثفت ظروف الرجل ومواهبه في وضع الحجر الأساسي لبناء مجده ، ومستقبله .

ولم تقف ثقة « المعز » « بجوهر » عند هذا الحد ، بل جعله على رأس الحملة التي وجهها لفتح مصر ، ونشر الدعوة الشيعية بالمشرق ، بعد أن فشل من سبقه من القواد الفاطميين في هذه المهمة ، ومن الجلي الواضح أن حظه في مصر لم يكن أقل منه في بلاد المغرب التي كانت حينئذٍ تسودها الفوضى والاضطراب ، وخاصة الدولة العباسية التي كانت تحكمها إسمياً ، فقد كانت هي أيضاً في حالة سيئة من الضعف ، والانحلال ، والعجز عن إرسال جندي واحد للمساهمة في صد الأعداء المغيرين .

وعلى الرغم من وقوف « المعز لدين الله » على حقيقة هذه الأوضاع ، فقد كان يرى أن فتحها يحتاج إلى قيادة حكيمة ، وعقل راجح بعيد النظر ، وكان أن اختار « جوهراً » ، وسلّمه القيادة العامة ، ولا غرابة في ذلك ، « فالمعز » سبق له أن خبره كاتباً ، ووزيراً ، وقائداً في المغرب ، وبالفعل كان « جوهر » عند حسن ظن « المعز » به فتمّ فتح مصر على يديه ، واتخذها قاعدة لأمبراطورية الفاطميين ، ثم نفذ منها بعد ذلك إلى فلسطين والشام والحجاز ، وكل ذلك بفضل مهارته ، وحسن سياسته ، وإخضاع الظروف إلى إدارته .

ومهما يكن من أمر فإن أثار « جوهر » لا تزال حتى الآن تنطق بعظمة هذا القائد العظيم والفاتح الكبير ، كيف لا ؟ فهو منشيء « القاهرة » المعزيّة ـ أعظم عاصمة إسلامية ، وأقدم منارة للحضارة العربية ـ المدينة التي انبسطت أنوارها على الآفاق ، فأصبحت منبع العلوم ، والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، ومحط رحال الشعراء ، ومنهل المدنية والحضارة.

أجل . . . لقد كان « جوهر » أحسن مثل للحاكم العادل . . . يجلس للمظالم بنفسه . . . يعاقب المسيء ، وينصف المظلوم ، ويقضي بين الناس بالعدل ، ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي المعتدين ، والعابثين بالأمن

والنظام ، ولو كان من خاصته وخلصائه ... ويكفي أن « المعز لدين الله » قد محضه ثقته ، وترك له حكم مصر أربعة أعوام لم يفكر في خلالها بالحضور إليها .

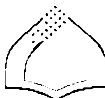
وأخيراً ... مات « جوهر » سنة ٣٨١ هـ ، وذكر : أن الخليفة « العزيز بالله » عاده في مرضه الأخير ، وأرسل إليه خمسة آلاف دينار ، وهكذا فعل ولي عهده « الحاكم بأمر الله » ... وذكر أيضاً : أنه أمر بتكفينه بسبعين ثوباً ما بين موشّى ومثقل بالذهب ، ثم صلّى عليه ودفنه في « القرافة » الكبرى .

وبموت « جوهر » طويت صفحة من صفحات العظمة والبطولة ، وغاب القائد الذي لم يهزم في معركة ، والسياسي المحنّك ، والعاقل المدرك ، والإنسان الطّيب ... الذي لم يبق في مصر رجل إلا ومشى وراءه ، ولا شاعر إلاّ ورثاه ، وأشاد برجولته ، وشخصيته النادرة ، وصفاته العالية .

ولا بد لي في خاتمة المطاف من القول :

بأن إحدى الصحف الألمانية في الحرب العالمية الثانية الأخيرة كتبت فصلاً عن « رومل » القائد الألماني المعروف مشيرة بأنه كان يتبع في خططه ، وفي زحفه من « ليبيا » إلى

الديار المصرية الخطوات التي سبقه في السير عليها القائد الفاطمي الكبير «جوهر» الصقلي عندما اندفع من شمالي أفريقيا باتجاه «الاسكندرية» .



جوهر وبلاد النوبة

عندما تمّ « لجوهر » فتح مصر بادر إلى إرسال مندوب عنه هو : « عبد الله بن أحمد الأسواني » إلى ملك « النوبة » يدعوه للإسلام ، ودفع الجزية المعروفة بالقبط ، والمقررة على بلاد « النوبة » منذ الفتح الإسلامي.

فلبّى الطلب وظلّت العلاقات الطّيبة يسودها السلام بوجه عام ، وتقوم على تبادل التجارة فيما عدا أوقات متفرقة كانت ترسل فيها حملات تأديبية لكبح جماح النوبيين عندما ينقضون الهدنة ، أو يسيئون للمسلمين ، أو يهاجمون « أسوان » ، ومن الجدير بالذكر أنه في تلك الأيام أخذ المسلمون يستوطنون هذه البلاد ، ويقتنون الأراضي ، كما أن الكثير من النوبيين ، وخاصة في الأجزاء الشمالية قد دخلوا في الإسلام .

منشئات جوهر
القاهرة - الازهر

كان من أهم ما رمى إليه الفاطميون من احتلالهم مصر ، أن يؤسسوا قاعدة لدولتهم تسع جندهم ، وتأوي أنصارهم ، وتضم مؤسسات دولتهم ، وتكون في الوقت ذاته قاعدة لهم ينفذون منها إلى ديار أخرى .

وحين وصل القائد « جوهر » الصقلي سنة ٣٥٨ هـ إلى مدينة « الفسطاط » ، وعسكر في شمالها . وضع أساس المدينة التي عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر الخلافة الفاطمية . ومن الجدير بالذكر أن كل قبيلة من قبائل « البربر » التي اشتركت في الفتح اختطّت لها منطقة خاصة بها . فاختطّت جماعة من « برقة » الحارة المعروفة بالبرقية ، واختط الروم حارة الروم الخارجية ، وأخرى حارة الروم الجوانية . وكانت تقع بقرب باب النصر . ويقول التاريخ :

إن « جوهر » لمّا فرغ من بناء قصر الخليفة ، وأقام حوله السور سمّى المدينة « المنصورية » نسبة إلى « المنصور » والد « المعز » ، وظلّت هذه التسمية تطلق على المدينة حتى وقت قدوم « المعز لدين الله » فسماها عندئذ « القاهرة » . . . وقال بعضهم :

إنها سميت كذلك لأن أساسها حفر على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر ، وهو كوكب يقال له : « القاهر » . وقال بعضهم :

إن القائد « جوهر » لمـّا أراد بناءها أحضر المنجمين ، وعرّفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر في مصر ليقيم به الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعد لوضع الأساس ، وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمّال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة ، واتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس ، فتحركت كلها ، فظنّ العمّال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وأخـذوا في البناء . . فصاح المنجمون : القاهر في الطالع ، فمضى ذلك ، وفاتهم مـا قصدوه ويقال : ان المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك . فسموها « القاهرة » .

وقيل :

إنما سميت « القاهرة » لأنها تقهر كل من شذّ عنها ، أو حاول الخروج على صاحبها . وليس بعيداً أن يكون اسم « القاهرة » مأخوذ من قول « المعز لدين الله » « لجوهر » في رسالته إليه عندما علم بوصوله إلى « الفسطاط » : « ابن مدينة وسمها « القاهرة » لأني سأقهر بها بني العباس » .

وقيل سميت « القاهرة » لأن حروفها بحساب « الجُمّل » يأتي مطابقاً لتاريخ تسلم الخليفة « المعز لدين الله » شؤون الخلافة الفاطمية وهي سنة ٣٤٢ هـ . فتكون هكذا :

ا	ل	ق	ا	هـ	ر	هـ
١	٣٠	١٠٠	١	٥	٢٠٠	٥

تقع « القاهرة » المعزّية شمالي « الفسطاط » ، وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى « باب زويلة » ، وكانت حدودها الشرقية هي حدود « القاهرة » الحالية . . . أمّا الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج ، وعلى ذلك فهي تحد شمالاً « باب النصر » ، وجنوباً « باب زويلة » ، وشرقاً « باب البرقية » ، و « الباب المحروق » ، وغرباً « باب السعادة » ، و « باب الفرج » ، و « باب الخوخة » .

أمّا القصر الذي بناه « جوهر » « للمعز » وعرف بالقصر الشرقي الكبير ، فهو داخل السور ، أو شرقي سور المدينة ، وسمي أيضاً القصر المعزي ، وكان فيه دواوين الحكومة ، وخزائن السلاح ، ومراكز الحراس والجنود ، وذكر : أنه كان يحتوي على أربعة آلاف حجرة ، وكان للقصر أبواباً عديدة : منها باب الذهب ، وباب العيد ، وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الإمام الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران. وهناك مقبرة الخلفاء الفاطميين ، وموقعها الآن « خان الخليلي » وذكر : أن « المعز » دفن في هذه المقبرة جثث آبائه « المهدي » و « القائم » ، و « المنصور » ، وكان قد أحضرهم معه بتوابيت من بلاد المغرب .

الجامع الازهر

الجامع الأزهر هو أول مسجد شيّده الفاطميون في مدينة « القاهرة » المعزّية ، وعرف فيما بعد بأنه أكبر جامع في العالم الإسلامي ، أو قل أعظم جامعة إسلامية تدرس فيه العلوم الدينية الإسلامية ، وقد اختلف المؤرخون في سبب التسمية . فقال بعضهم :

إنه كانت تحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء مدينة « القاهرة » ، وقال آخرون : إنما سمي ذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم ، وازدهار العلوم . . . ولكن الحقيقة هي : إن الفاطميين سموه « الأزهر » تيمناً وتخليداً « لفاطمة الزهراء » بنت النبي محمـــد صلعم التي ينتسبون إليها .

كلمة أخيرة

كنا ذكرنا أن مقاليد الأمور في مصر ظلت بيد « جوهر » الصقلي حتى قدوم « المعز لدين الله » سنة ٣٦٢ هـ ، وعندما استقر « بالقاهرة » قبض على زمام الأمور بحزم ، واستأثر بكافة الصلاحيات ولم يترك لأحد أي مجال لتخطي حدوده وصلاحياته ، فسلب « جوهر » كل ما يتمتع به من نفوذ ، ولكنه أبقاه إلى جانبه يستشيره بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، ولم يذكر التاريخ أن « المعز لدين الله » قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتوحات ، وأعمال ، وتثبيت دعائم الخلافة ، وصد هجمات القرامطة ، والأخشيديين عن مصر ، تلك الهجمات التي كادت تعصف بالدولة الناشئة . . . فالتاريخ يذكر أنه أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة والصغيرة ، وجعله في عزلة تامة عن كل ما من شأنه السياسة الفاطمية .

وهكذا نرى « جوهراً » يتوارى قليلاً قليلاً عن المسرح ، ولم يعد إلى الظهور إلاّ في أواخر سنة ٣٦٤ هـ حين تفاقم خطر « أفتكين » ، والحسن القرمطي « الأعصم » وحين استعصى على قواد الجيوش الفاطمية إيقاف هذه القوى الجرارة المهاجمة العنيدة ، فلجأ « المعز » عندئذٍ إلى « جوهر » وولاّه قيادة جيوشه ، ولم يكن « جوهر » في تلك المدة أقل إخلاصاً لمولاه الخليفة « المعز » . . . ولكن « المعز » توفي بعد عام أي سنة ٣٦٥ هـ ، فظلّ قائماً بمهمته حتى جاء الخليفة الخامس « العزيز بالله » بن « المعز » . . . وهذا ما سنتحدث عنه في الجزء الخامس الخاص بالخليفة « العزيز بالله » .

ومهما يكن من أمر فنحن لا ندري سبب موقف « المعز لدين الله » من قائده « جوهر » هذا الموقف الذي أثار التقولات والتساؤلات ، ولعلّ « المعز لدين الله » قد سلك مع « جوهر » الطريق الذي سلكه غيره من الملوك والخلفاء مع عظماء قوادهم ممن أسسوا الدول وفتحوا الأمصار ، وذلك اتقاءً من انتفاضاتهم ، وخشية على نفوذهم . . . ولن يعوزنا الدليل ، فقد قتل « أبو جعفر المنصور » العباسي قائده « أبا مسلم الخراساني » ، وكذلك فعل « عبيد الله المهدي » بأبي « عبيد الله » الشيعي ، ولكن « المعز » كان أحسن حالاً ، وأكثر شفقة من غيره .

وفي خاتمة المطاف لا بد لي من القول بأن التاريخ ذكر : بأن «جوهراً» كان كاتباً بليغاً ، يمتلك البيان الواضح ، والكلمة الحلوة المعبرة . . . وقد كتب على رقعة رفعت إليه في مصر بخطه ما يلي :

«سوء الاحترام . . . أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الانعام أخرجكم من حفظ الذمام . فالواجب فيكم ترك الإيجاب . واللازم لكم ملازمة الاحتساب لأنكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعديتم . فابتداؤكم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما فرجة إلا تقتضي الذم لكم . والإعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم » .

ففي هذا الشرح ، وفي الأمان الذي أعطاه إلى المصريين تتجلّى قدرته الكتابية وتظهر الجمل القصيرة المسجوعة ، والمعاني المتسعة ، والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى مما يعزز الفن الإنشائي ، ويبرز الزينة اللفظية .

أجل . . . إنه أسلوب المبالغة في استخدام البديع والإغراق في المبالغة حين تشخيص المعاني ، واستخدام الجناس ، والكلفة في تركيب الجمل مع مراعاة النظير . . . إنها جمل قصيرة تتبعها جمل أخرى على وزنها ، وموسيقاها ، ومعناها ، وانتقال إلى معنى آخر في رقة ، وعذوبة ، وحسن اختيار .

القائد جعفر بن فلاح

ينحدر « جعفر بن فلاح » من أسرة عريقة من قبيلة « كتامة » المغربية ، وهي أسرة « آل عمّار » وقد سبق أن تحدثنا عنها في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة .

رافق « جوهر » الصقلي في حروبه المغربية ، وكانت فرقة « كتامة » تحارب تحت قيادته في تلك الحروب التي أبلى فيها بلاءً حسناً لدرجة أنهم كانوا يشيرون إليه بأنه القائد الثاني بعد « جوهر » الصقلي ، وبالنظر لثقة الخليفة « المعز » به ، فإنه عهد إليه بأن يكون رفيق « جوهر » في حملته على مصر ، ولأن المغاربة كانوا يطيعونه الطاعة العمياء ويعتبرونه أميرهم .

ويذكر التاريخ :

إنه لمّا تمّ « لجوهر » فتح مصر ، وبعد أن استتب له الأمر فيها أرسل « جعفراً » إلى فلسطين والشام لاحتلالها ،

وكانت آنئذٍ خاضعة لحكم الاسرة الاخشيدية ، وعندما علم « الحسن بن عبد الله بن طغج » الاخشيدي والي « الرملة » ودمشق بذلك استخلف « شمول » الاخشيدي على دمشق ، وسار بنفسه إلى « الرملة » لملاقاة الفاطميين ، ولكن « شمول » لم يخلص « للحسن » ، وكاتب « جعفراً » ودعاه إلى الحضور إلى دمشق مع وعد بإعانته على فتحها ، وفي الوقت نفسه تقاعس عن نصرة « الحسن » حين طلب إليه القدوم عليه مع جيوشه ، وفي ذلك الوقت كانت جيوش الفاطميين بقيادة « جعفر بن فلاح » قد وصلت إلى فلسطين .

ومن الجدير بالذكر أن « جوهر » الصقلي لم يعهد إلى « جعفر بن فلاح » مهمة فتح الشام إلاّ بعد أن خبر شجاعته ، وحسن قيادته ، ومرونته بأساليب القتال ، وبعد نظره بافتتاح البلدان وسياسة الشعوب ، ومن جهة ثانية لعلّ « جوهر » أراد من وراء ذلك إبعاد القائد المنافس له وتوريطه في بلاد الشام ، حتّى لا ينافسه في مصر ، لأن « جعفر » قال في نفسه انه أفضل من « جوهر » وأحق منه بإمرة مصر ، وبقيادة الجيوش العليا للدولة الفاطمية . . . أجل . . . كان يرى نفسه أميراً ، بينما يرى « جوهر » عبداً ، وابن عبد .

انطلق « جعفر » في بلاد فلسطين يحرز الانتصار تلو

الانتصار ، فكاتب ولاة الأقاليم ورؤساء القبائل يدعوهم إلى طاعة الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » ، ويعدهم بحسن المكافأة فرفض « الحسن » الاخشيدي طلبه ، وزحف لملاقاته في « الرملة » ، فدارت الدائرة عليه بعد عدة معارك ، وأخيراً وقع في الأسر هو والعديد من جنده. فسيق إلى « الفسطاط » وسجن فيها ، ثم أرسله « جوهر » إلى بلاد المغرب ، فبقي فيها حتى مات سنة ٣٧١ هـ .

ثم إن « جعفراً » استأنف المسير إلى « طبرية » فدخلها وكان عليها « فاتك » غلام « كافور » الذي حاول المقاومة ، والاعتصام ، ولكن « جعفر » بنى برجاً يؤدي إلى دخول المدينة ، وعندئذٍ رأى «فاتك» أن لا بد له من الاستسلام. وعندما استسلم قتله « جعفر » . ولمّا علم أهل دمشق باستيلاء « جعفر » على « الرملة » و « طبرية » خشوا بأسه . فأوفدوا إليه جماعة من كبار رجالهم ، وقد اتفق وصولهم في اليوم الذي قتل فيه « فاتك » والي « طبرية » . وكانت قد اشتعلت نار الفتنة على أثر مقتله : فلم يحسن « جعفر » وفادتهم ، فعادوا إلى دمشق ساخطين عليه ، وعلى جنود المغاربة ، وتعتبر هذه أول نكسة تعرض في وجه « جعفر » ، وهو في طريقه لفتح بلاد الشام .

أجل ... تقدّم « جعفر » في مسيرته باتجاه الشام ، وفي « حوران » تصدّى له « ظالم بن موهوب العقيلي » وهو من عرب « حوران » ، وواليها من قبل الاخشيديين ، وكانت تحت إمرته جيوش كثيفة ، فدارت معارك عنيفة كان من نتائجها هزيمة العقيلي ودوران الدائرة عليه ، وعلى جيشه ، وذكر أنه نجا بنفسه ، وفرّ باتجاه « حمص » ملتحقاً بالقرامطة في « الاحساء » ، أمّا « جعفر بن فلاح » فتابع سيره ، وكان « شمول » قد ترك الشام ، والتقى به في « طبرية » ثم انضمّ إليه أخيراً ، ومما يجب أن يذكر أن « جعفر بن فلاح » تمكن في « حوران » من إحراز النصر الحاسم بعد أن وضع خطة قسّم بموجبها جيش العقيلي إلى فريقين جعلهما يحاربان بعضهما البعض ، فجعل بني « فزارة » و « مرة » ينفصلان عن العقيليين ، وينقلبان عليهم وهذه من الخطط البارعة في الحروب .

وأخيراً : وصل « جعفر » إلى ضواحي دمشق وعسكر فيها ، فاشتدّت الفوضى ، وعمّ الاضطراب ، واستولى الذعر على الناس ، فحمل كل من يستطيع السلاح من أهل المدينة وهرع إلى الانضمام لجيش المقاومة ، وفي العاشر من ذي الحجة سنة ٣٥٨ هـ حمل « جعفر » على جيش الشام حملة

قوية فهزمهم وقتل منهم أعداداً لا تحصى . ثم دخل المدينة ، واستولى على كل ما فيها .

ويذكر التاريخ :

إن المغاربة أضرموا النار في أسواقها ، ومنازلها ، وحولوا العديد من أحيائها إلى رماد . ، ولمّا رأى أهل دمشق ما حلّ بقواتهم من الهزيمة والدمـــار ، وأنه لا قبل لهم على الوقوف بوجه الجيوش الفاطمية المنظمة تنادوا إلى الاجتماع ، وشكلوا وفداً من أصحاب النفوذ والجاه فقابلوا « جعفر » ، وطلبوا إليه إصلاح حال المدينة ، وإعادة الهدوء والاستقرار إليها ، وعندما كانوا عائدين من عنده ، تصدّى لهم بعض الجنود من المغاربة ، وسلبوهم ثيابهم ، وجرحوا الكثيرين منهم ، ممّا أثار السخط لدى أهالي دمشق عامة ، فعادوا من جديد يشقون عصا الطاعة ، ويذكون نار الفتنة .

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن خمدت أمام قوة « جعفر » ، فقد بادر إلى إطفائها بالقوة ، واعتقال مسببيها ، وهنا أيضاً لم يجد الأهلون بداً من أن يخطبوا وده ، ويطيعونه من جديد ، فذهب وفد منهم لمقابلته وطلب الأمان .

ويذكر التاريخ :

إنه لم يقبل منهم ، بل طلب إليهم أن يخرجوا إليه ، ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين

يديه ؛ فرضوا بذلك صاغرين . . . على أن « جعفر » لم يلبث أن هدأت ثائرته ، وعاد إلى هدوئه ، وتبسط معهم في الحديث ، واستقر الرأي أخيراً على أن يصلي هو ورجاله يوم الجمعة معهم في مسجد دمشق ، وفي ذلك اليوم وكب « جعفر » في أصحابه ، ودخل المسجد ، وصلّى الجمعة ، ثم أمر بحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة ، ووضع بدلاً عنها اسم الخليفة الفاطمي ، وقد انتهز جنوده فرصة وجودهم في المدينة فنهبوا الناس ، واعتدوا على الأهلين ، وسلبوا البعض أموالهم ، وذكر : أنهم دخلوا بعض المنازل ، وعاثوا فيها فساداً ، فثار أهل دمشق من جديد ، وهاجموا الجنود ، وقتلوا منهم أعداداً كثيرة ، ولمّا وصلت الأحوال إلى هذه الدرجة ، تنادى شيوخ ، ووجوه المدينة ، وجاءوا إلى « جعفر » لإعلان استيائهم ، واستنكارهم لما حدث ، وللمطالبة بالأمان من جديد .

ويذكر التاريخ :

إن « جعفراً » قال لهم :

دخل جيش أمير المؤمنين « المعز لدين الله » للصلاة معكم ، فقتلتموهم ، وغدرتم بهم ، فماذا تريدون بعد ذلك ؟ إني لا أعفو عن شيء ، ولا أرفع عنكم السيف إلاّ بعد دفع ديّات القتلى فعادوا ، وأخذوا يجمعون الأموال حتّى ساءت

أحوال المدينة ، وحلّ بأهلها الإرهاق . وفرّ منها العديد من الناس .

هذه الحوادث المتكررة التي تعرّض لها القائد « جعفر بن فلاح » تدعو إلى النظر والتأمل فقد ذكرها المؤرخون ، وأضافوا إليها نقدهم الشديد لقيادته ، وضعف إرادته مع جنوده ، وعدم قدرته على ضبطهم ، وكبح جماحهم ، لدرجة أنه بلغ بهم الاستهتار حد الاعتراض على وفود الصلح والسلام التي تأتي لمقر قائدهم « جعفر » ، فكانوا يرابطون في الطرقات ، ويسلبونهم أموالهم ، وثيابهم ، وكل هذا أثار كوامن النفوس ، وحرّك شعور الناس ، ووقف حجرة عثرة في سبيل استقرار المدينة ، وهنا تتوضح أمام الأنظار ، وتعود إلى الذاكرة حكمة « جوهر » الصقلي ، وبعد نظره وحسن سياسته ، وقبضه بيد من حديد على ناصية الجيش . وكنا ذكرنا أنه لمّا دخل « الاسكندرية » أمر جنده بعدم ممارسة أي عمل من أعمال السلب والنهب ، والاعتداء على الآمنين ، وظلّت أوامره هذه مطاعة حتى آخر المطاف ، علماً بأن جنوده كانوا من المغاربة ، وجنود « جعفر » أيضاً من المغاربة ، ولكن يأتي من يقول :-

بأن أهل دمشق غير أهل مصر ، فهناك بون شاسع بين

الشعبين ، وبين العمليتين . . . ويجب أن لا يغرب عن البال ما يحمله أهل الشام من حقد قديم على كل ما هو علوي ، ولعلّ هذا هو سبب العراقيل التي وضعت في طريق « جعفر ابن فلاح » .

وأخيراً : رأى الجعفر » أن الاضطرابات سوف لا تهدأ في دمشق ، وأنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فيها إلاّ بالقضاء على زعماء الفتنة الذين كانوا يتسترون وراء الجدران ، ويحيكون المؤامرات في الظلام ، فأرسل جنده في طلبهم ، فقبضوا على بعضهم وأمر بأن تضرب أعناقهم ، وتصلب جثثهم ، وتعلّق رؤوسهم على أبواب منازلهم ، وكان من بينهم « إسحاق بن عصودا » ، وقد استطاع « أبو القاسم بن أبي يعلى » العباسي ، و « محمد بن عصودا » وهما من أظهر زعماء الثورة أن يفرّا من المدينة ، ولكن « جعفر » أرسل من لحق بهما ، فتمكن من القبض على أبي يعلى » عند « تدمر » ، وكان في طريقه إلى « بغداد » ، وعندما جاء إلى دمشق أرسله إلى مصر .

وذكر التاريخ :

إن « جعفراً » وضع جائزة ألف دينار لمن يقبض على الشريف « أبي يعلى » ، فلقيه « ابن غلبان العـــدوي » في « تدمر » ، فقبض عليه ، وساقه إلى « جعفر » ، وعندما مثل بين يديه سأله :

ما الذي حملك على ما صنعت . ومن ندبك إلى ذلك ؟
فقال :

ما حدثني به أحد . وإنما هو أمر مقــدر . فرقّ له « جعفر » . ووعده بالسعي للإفراج عنه . ولا غرو فإن « جعفر بن فلاح » كان يحب الهاشميين . ولا يريد أن يلحق بهم أي أذىً . أمَّا « محمد بن عصودا » فقد لحق بالقرامطة في « الأحساء » . وهكذا « ظالم بن موهوب العقيلي » والي « حوران » من قبل الاخشيديين .

وأخيراً : تمّ « لجعفر بن فلاح » السيطرة على الموقف في بلاد الشام . وفلسطين . ودان أهلها لسلطان الفاطميين . على أنّ هذا الفتح وأن يكن قد تمّ بالعنف والإكراه على يد هذا القائد الكتامي المغربي . فإن سياسته وتراخيه مع جنده . وتغاضيه عن أعمال العنف . والشدة . والإكراه . والعبث بالأمن والنظام . والاستهتار بأرواح الناس . كل هذا كان له الأثر السيء في صرف القلوب عنه . ومشايعة الزعمــاء المعارضين لحكم الفاطميين الذين لم يكن يهدأوا . بل ينتهزون الفرصة للقيام بثوراتهم . وانتفاضاتهم . وقد ظهر من أثر هذه السياسة أن نزح الكثير من أهل دمشق عنها كما ذكرنا . وذهب بعضهم سراً إلى القرامطة يستنجدون بهم . و « بأفتكين » يطلبون تخليصهم من براثن المغاربة .

ومهما يكن من أمر . فإن دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها كانت تدفع لزعيم القرامطة « الحسن بن أحمد » (الاعصم) جزية سنوية قدرها ثلاثة الاف دينار ، فلمّا استولى عليها « جعفر بن فلاح » قطع الجزية عنه . فصمّم القرامطة على اكراههم على دفعها . وإجلاء جيوش الفاطميين عنها .
ويذكر التاريخ :

ان « الحسن » القرمطي طلب في هذه الفترة التحالف مع العباسيين ، ولكن الخليفة ، رفض طلبه فتوجه إلى استمالة بني « بويه » وكانوا هم أصحاب النفوذ الفعلي في بلاد العراق ؛ فرفضوا أيضاً الدخول مع القرامطة بأي حلف مهما كان . ولم يقبل التحالف معهم سوى أمير « الرحبة » . وكان من الحمدانيين . وبعض القبائل العربية .

وبعد أن أتمّ « الأعصم » تجهيز جيشه اندفع ، وظلّ باندفاعه حتى وصل إلى ضواحي دمشق ، وهناك وفي موقع يعرف بـ (الدكة) وهي قرية تقع على نهر « يزيد » بقرب دمشق التقى بجنود « جعفر » .

ويذكر التاريخ :
إن « جعفر » كان قد أرسل جيوشه إلى « أنطاكية » لاستخلاصها من الروم . بدون أن يحسب حساباً لهجمات

القرامطة . وبالفعل لاقى جيش « جعفر » الصعوبات في « أنطاكية » لأن الوقت كان شتاءً . والبرد القارس كان من الأسباب التي عرقلت مسيرة هذا الجيش . وجعلته تحت رحمة الروم . . . من جهة ثانية فإن « جعفر » استهان بقوة القرامطة . واحتقر « الأعصم » . واعتبر أن القضاء عليه لا يستحق كثير عناء . ولكنه أخطأ التقدير منذ اللحظة الأولى . وكان لا بد لجنوده من الهزيمة (وهم قلة) فبقيَ وحده في الميدان يقاتل بانتظار جيوشه وكان قد أرسل غلامه « أبو الفتوح » إلى « أنطاكية » لاستدعاء الجيش الذي يحارب الروم هناك ، ولكن هذا الجيش لم يصل حتى كان « جعفر » قد وقع قتيلاً وذلك سنة ٣٦٠ هـ ، ومما يجب أن نذكره : أن « محمد بن عصودا » عثر على جثة « جعفر بن فلاح » ملقاة في إحدى ضواحي دمشق ، فقطع رأسه . وصلبه على حائط داره انتقاماً لأخيه « إسحق » الذي كان « جعفر » قد قتله وصلبه عندما قام بالثورة عليه .

وهكذا انتهت حياة هذا القائد الكبير الذي نشر سلطان الفاطميين في فلسطين والشام . بعد أن انتزعها من الاخشيديين ، وأذل زعماءَ الثورات التي قامت بوجهه . . . أجل . . . انتهت حياة القائد الذي لم تستطع الجيوش الجبَّارة هزيمته في

المغرب ، ومصر ، وفلسطين ، والشام ، فقتل على أيدي شرذمة غير نظامية ، اعتبر أن أمر القضاء عليها عملية سهلة بهذه القلة من جيشه ، وكل هذا سببه سوء التدبير ، والاستهانة بالأمور الصغيرة ، والتباهي بالنفس ، والاعتداد بالقوة ، أمّا الخطيئة الكبرى فهي إرساله جيوشه لمقاتلة الروم في « أنطاكية » في أيام الشتاء ، وبقاءه في الشام مع قوة من الجند لا تكفي حتّى لإقرار النظام في المدينة الغضبى .

ويجب أن لا يسهى عن البال بأن ترفع « جعفر » على « جوهر » الصقلي كان له أبعد الأثر ، في كل ما جرى . فقد عزّ عليه أن يكتب له ، أو أن يطلب منه العون ، وكتب إلى « المعز لدين الله » موقعاً في « جوهر » ، مبيناً ما بذله من جهود في فتح بلاد الشام وفلسطين .

ويذكر التاريخ :

إنّ كتبه لمّا وصلت إلى « المعز لدين الله » وهو بالمغرب لم يفضها بل أمر بردها إليه مع كتاب ينبهه إلى ما ارتكبه من سوء تصرف وخطأ ، ويأمره أن يكتب إلى « جوهر » باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك بالرغم من مكانة « جعفر » في نفس « المعز » . . . تلك المكانة التي لم تفقده شيئاً بجانب تمسك « المعز » « بجوهر » . وثقته به ، وبإخلاصه ، وحسن بلائه ، وبعد نظره .

ولمّا علم «جوهر» بذلك غضب على «جعفر» . وعلم ما تنطوي عليه نفسيته من أنانية واعتداد . وكل هذا كان له أبعد الأثر فيما صادفه «جعفر» من مصاعب في فتوحاته . فقد كان يعتقد أن «جوهراً» سيتقاعس عن نصرته ، فيما إذا طلب منه الإمدادات ؛ وفي هذا الخطأ الفادح الذي قرّب أجله ، وأورده مورد الهلاك .



أفتكين وأحداث الشام

كان « أفتكين » التركي الشرابي غلاماً « لمعز الدولة أحمد بن بويه » ، ولم يزل يترقى في المناصب حتى عظم شأنه في « بغداد » ، وغلب على « عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه » فلما سار الأتراك من « بغداد » لقتال «الديلم» اشتهر « أفتكين » بالشجاعة والإقدام في المعارك التي خاضها ، إلاّ أن أصحابه في نهاية المطاف انفضوا من حوله وتركوه، ولم يبق معه سوى طائفة قليلة العدد ، فسار إلى « الرحبة » في نحو أربعمائة رجل فخافه العرب ، وعاضده الحمدانيون ، فجاء إلى بلاد الشام ، واستغلّ الثوار الناقمين على الفاطميين ، وكان في ذلك الوقت « ظالم بن موهوب العقيلي » قد أصبح والياً على « بعلبك » من قبل الفاطميين ، فبعث إليه « إبراهيم ابن جعفر » والي دمشق الفاطمي يعلمه بأن « أفتكين » قد غادر « بغداد » وأنه في طريقه إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي ، فأرسل « ظالم » جيوشه وجاء على رأسها ، وانضمّ

إليه والي دمشق الفاطمي ؛ وفي موقع «حوشبة» التقى الفريقان ؛ ولكن « ظالم » رأى أن لا قبل له بمنازلة « أفتكين » فانسحب إلى « بعلبك » ، بينما سار « أفتكين » إلى دمشق ودخلها .

في ذلك الوقت كانت جماعة في دمشق بزعامة « ابن الماورد » قد قامت بثورة ضد الفاطميين . فلمّا بلغهم خبر قدوم « أفتكين » أرسلوا إليه « ابن الماورد » فدعاه ورغّبه باحتلال دمشق مع الوعد بمساعدته على شرط أن يولّيه أمر المدينة ، وهكذا تمّ « لأفتكين » دخول المدينة سنة ٣٦٤ هـ دون قتال ، وبعد إقامته فيها عدة أيام خرج لمقاتلة « ظالم بن موهوب العقيلي » ، ففرّ من وجهه واعتصم في مدينة « بعلبك » ولكن الروم سبقوا « أفتكين » إليها ، ودخلوها ، وانتشروا فيها يحرقون ، وينهبون ، ويعبثون ، ثم قصدوا دمشق ؛ فقابلهم أهلها واتفقوا معهم على مال يؤدونه إليهم ، وجاء « أفتكين » أخيراً إليهم وأخبرهم بأنه لا يستطيع جباية الأموال بسبب وجود « ابن الماورد » وأصحابه ، فأمر الروم بالقبض على « ابن الماورد » ، ثم أن « أفتكين » تمكن بعد ذلك من جمع مبلغ ثلاثين ألف أدينار أخذها الروم ، وذهبوا إلى « طرابلس » ، وبرحيلهم تمركز « أفتكين » في دمشق ودعا على منابرها « للطائع » العباسي ، ولم تنفع جهود « ظالم العقيلي » وهجمات « علي بن جعفر بن فلاح » وكان وقتئذ « بالرملة » .

في غمرة هذه الأحداث الرهيبة ظهرت للمرة الثالثة قوة القرامطة على مسرح الأحداث وكانوا يحملون شعار حرب الفاطميين ، وقتالهم أينما كانوا ، وهذا ما دعا « أفتكين » إلى الاتصال بهم في « الأحساء » ، ودعوتهم للحضور والتعاون على قتال الفاطميين ، فقدموا إلى دمشق سنة ٣٦٥هـ ، ومعهم العديد من جنود « أفتكين » الذين تشتت شملهم كما ذكرنا ، فأعدّوا العدة ووضعوا الخطط لضرب الفاطميين وإبعادهم عن الشام ، وفلسطين .

وأخيراً :

ترك القرامطة « وأفتكين » دمشق ، وساروا باتجاه«الرملة» حيث نزلوا فيها ، ثم هاجموا « يافا » . وواصل « أفتكين » سيره على ســاحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى « صيداء » وكان فيها « ظالم العقيلي » إلى جانب (ابن الشيخ) واليها من قبل الفاطميين . فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل ، وانتهى القتال بهزيمة « ابن الشيخ » ، أمّا العقيلي فقد تراجع إلى « صور » .

ويذكر التاريخ :

إن « أفتكين » انتقم من جنود الفاطميين بأن قطع أيديهم

ورؤوسهم وأرسلها إلى دمشق . وبعد ذلك سار إلى « عكاء » وكانت فيها حامية فاطمية .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة « وأفتكين » على بلاد الشام . وفلسطين . واستعصى على الفاطميين استعادة أي جزء منها . ومات الخليفة « المعز لدين الله » في تلك الفترة والمنطقة تغلي كالبركان المضطرم . فكان على الخليفة « العزيز بالله » أن يطفي لهيبها على يد القائد الكبير « جوهر » الصقلي . وهذا ما سنفصله في الجزء الخامس من الموسوعة .



كلمة أخيرة
في جعفر بن فلاح

ذكر التاريخ :

إن الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » ، حزن حزناً عميقاً على « جعفر بن فلاح » . . . « فجعفر » كان بنظره من القواد الكبار البارزين ، الذين أخلصوا للدولة الفاطمية وضحوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل عزّتها وسؤددها . ويذكر :

إن « المعز لدين الله » عاتب « جوهر » عندما وصل إلى مصر عن تقصيره بإمداد « جعفر » بالجنود ، والعتاد ، والأموال لتخطي العقبات التي كانت تعترّض مسيرته في فلسطين والشام ، وهناك من يشير إلى أن « جوهر » أبدى اعتذاره للحالة العامة التي كانت تسود الديار المصرية ، ثم لترفع « جعفر » ، واعتداده بنفسه ، وعدم تنازله للكتابة إليه وخاصة حينما تورّط بحربه مع الروم دون أن يحسب حساباً لما يجري في داخل البلاد .

انتصارات معزية
في صقلية

لمّا تولّى «المعز لدين الله» الخلافة الفاطمية سنة ٣٤٢ هـ كان «الحسن الكلبي» حاكماً على «صقلّية وقد تولاها بعهد والده الخليفة «المنصور بالله». فكان هو في «صقلية» على رأس جيش كبير. بينما أخوه «عمّار» على رأس جيش آخر في «قلورية».

ولكن «الحسن» كان أكثر قوة وشهرة لأنه برز عندما أخرج الروم من «ترميني». أما «عمّار» فكان في وضع متزعزع لأن جيوش الروم كانوا يطاردونه من مكان إلى آخر. ولم ينقذه من ذلك الوضع إلاّ انضمام أخيه «الحسن» إليه. فقد استطاع عندئذٍ عبور خليج «سيني» بين «صقلية» و «قلورية» ولم يزل «الحسن» وأخوه يغزوان «قلورية» واحدة إثر الأخرى حتى اضطرّ الأمبراطور البيزنطي إلى عقد هدنة في عهد «المنصور».

ولكن الأمبراطور « قسطنطين » لم يقف من هذا الأمر موقف المتفرج ، فاتفق مع « الناصر » الأموي على مهاجمة الفاطميين ، ولكن « الحسن » أحبط مشاريعهما فانتصر على الروم والأمويين معاً . ففي سنة ٣٥١ هـ استولى « أحمد بن الحسن الكلبي » على قلعة « طبرمين » ؛ ولكن « رمطة » لم تستسلم للفاطميين سنة ٣٥٢ هـ فطلب أهلها النجدة من « نقفور فوكاس » الذي عرف بانتصاراته الساحقة على العباسيين والحمدانيين ، فأعد أسطولاً كبيراً . وعليه خمسين ألف رجل وعهد إلى « مانويل » بقيادته . أما « المعز » فأمَدّ « أحمد ابن الحسن الكلبي » بأسطول وبجيوش وبعتاد قسمها إلى قسمين : قسم جعله بقيادة « الحسن بن عمّار » وكانت مهمته حصار مدينة « رمطة » ، والقسم الثاني بقيادة « الحسن الكلبي » نفسه وقد عسكر في « بلرمو » .

وبالرغم من الاستعداد والتنظيم تمكّن الروم من الاستيلاء على « مسينا » وهي تبعد عن « رمطة » تسعة أميال ، كما استولوا على « ترميني » ، وهكذا حالوا دون وصول المدد الفاطمي إلى « الحسن بن عمّار » الذي كان يوالي حصار « رمطة » ، وكانت خطة البيزنطيين تهدف إلى إنقاذ « رمطة » والقضاء على جيش « الحسن » ، فأدرك « الحسن » ذلك ،

كما أن « أحمد » أدرك ما يحيط بابن عمه . فاتجه من « بلرمو » إلى « رمطة » لإنقاذ ابن عمه ، ولكنه لم يستطع أن يسبق الروم، لأنه انشغل باسترداد « ترميني » .

أمّا « الحسن بن عمّار » فقسّم جيشه إلى أربعة أقسام : جعل قسماً منها على حصار « رمطة » ليمنع أهلها من الاتصال بالجيش البيزنطي المهاجم ، ووضع قسمين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى المدينة ، واتجه هو على رأس القوة الرابعة لمقابلة جيوش « مانويل » التي تفوقه عدة وعدداً . وهنا اشتبك معهم ، ودارت المعارك الرهيبة . فاستمات الفاطميون في القتال ، وتعاهدوا في تلك اللحظات أن يموتوا كراماً . والتحم القتال . وعظم الأمر على الجيش الفاطمي . وألحقهم العدو بخيامهم ، وأيقن الروم بالظفر . ولكن الفاطميين اختاروا الموت فتنادوا إلى الثبات والصبر . ثم اعتدلوا . واندفعوا . وهنا دبّ الهلع في نفوس الروم . وسيطر عليهم القلق . ولمّا أدرك « مانويل » حرج مركزه تقدّم إلى الأمام، ولكن «الحسن» تصدّى له وتمكّن من عقر فرسه وقتله . فكان هذا الموقف ضربة قاضية على الروم ، فولوا هاربين . ووقع أكثرهم في الأسر ، وقتل جماعة من البطارقة . وتتبعهم الفاطميون بالقتل ، وامتلأت أيديهم من الأسرى والغنائم .

وذكر التاريخ :

إن الروم انهزموا أقبح هزيمة ، وأكثر الفاطميون فيهم القتل . ووصل المنهزمون أخيراً إلى جرف خندق عظيم كالحفرة فسقطوا من الخوف . وقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأ الخندق من جثثهم . وكانت الحرب منذ الصباح حتى العصر .

وكان من جملة الغنائم سيف هندي مكتوب عليه : هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً طالما ضُرِبَ به بين يدي رسول الله (صلعم) فأرسل إلى «المعز» مع الأسرى .

أمّا أهل «رمطة» فقد ضيق عليهم الفاطميون الحصار حتى اضطروا إلى إخراج نساءهم وأطفالهم فلم يشأ «ابن عمّار» أن يغدر بهم ، وعاملهم معاملة حسنة .

وعندما علم «أحمد بن الحسن الكلبي» بما وقع للروم ، اندفع بجيشه نحو «مسينا» وقصده أن يقطع عليهم خط الرجعة ، ولكنه علم أنهم هربوا إلى جزيرة «ريو» فلحق بهم ، وانتصر عليهم بموقعة «المجاز» المشهورة التي لا تقل عنفاً عن موقعة «رمطة» ، فقد زحف عليهم بالماء وقاتلهم ، فألقى جنوده أنفسهم في الماء ، وتمكنوا من حرق المراكب ، وإغراقها

وهناك أسر قائدهم الثاني وهو لا يقل أهمية عن الأول ، وأرسل إلى « المنصورية » .

بعد هذه الانتصارات أخذت المدن الثائرة تستسلم الواحدة بعد الأخرى وهذه الانتصارات كان لها الأثر البارز في نفس حاكم الجزيرة « الحسن الكلبي » الذي خرّ صريعاً من الفرح عندما كان يستقبل الجيوش الظافرة . وكان موته سنة ٣٥٤ هـ .

ظلّت الأسرة الكلبية تحكم جزيرة صقلية في عهد « المعز » ، وقد تقلب عليها أربعة منهم هم : « الحسن بن أحمد الكلبي » ، و « أحمد بن الحسن » ، و « عمّار الكلبي » أخ « الحسن » ، وابنه « الحسن بن عمّار » (بطل معركة رمطة) ، وعندما غادر « المعز » المغرب إلى مصر ترك عليها « أبو القاسم بن الحسن الكلبي » فظلّ يحكمها حتى سنة ٣٧٢ هـ أي حتى عهد الخليفة الخامس « العزيز » .

أمّا أسرة « بني كلب » هذه فقد كانت موضع عطف وثقة الخلفاء الفاطميين . وقد ولّى « المعز » العديد منهم المناصب العلية في المغرب ومصر .

المعز وجزيرة كريت

كانت جزيرة « كريت » في قبضة العباسيين ، وبالنظر لقربها من مصر فقد كان يشرف عليها والي هذه البلاد ، وقد استوطنها منذ أوائل القرن الثالث إلى منتصف القرن الرابع جماعة من مهاجري الأندلس يعرفون بأهل « الربض » وكان هؤلاء الريفيون قد ثاروا على « الحكم بن هشام » الأموي سنة ٣٠٤ هـ وحصروه في قصره « بقرطبة » ولكنه تمكن من الانتصار عليهم في موقعة « الربض » المشهورة ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، وأجلى البقية الباقية منهم عن الأندلس ، فقصد بعضهم مدينة « فاس » بالمغرب الأقصى ، وقصد البعض الآخر مدينة « الاسكندرية » .

ويظهر أن هؤلاء الجماعة ميالون بطبيعتهم إلى الشغب ، فقاموا بجملة تحركات وأثاروا الرعب في قلوب أهالي « الاسكندرية » في عهد ولاية « عبد الله بن طاهر » سنة ٣١١ —

٣١٣ هـ فاعتصموا بالمدينة ، وطردوا أهلها منها ، وولوا عليهم واحداً منهم يعرف « بأبي حفص عمر بن شعيب البلوطي » ، ولكن والي مصر استطاع أن يهزمهم ، ويجليهم عن « الاسكندرية » فجاءوا إلى « كريت » وعمّروها وكان يقودهم « أبو حفص عمر بن شعيب » .

وظلّ الربضيون بجزيرة « كريت » زهاء قرن ونصف في أمن ودعة حتى طمع الروم في الجزيرة ، وكانوا في تلك الأيام يوجهون ضرباتهم المتتالية إلى ممتلكات الدولة العباسية وعندما هاجموا « كريت » طلب الربضيون النجدة من العباسيين ، ومن « سيف الدولة » الحمداني فلم يسعفهم هؤلاء ولا أولئك ، فولّوا وجوههم شطر « المنصوريّة » يطلبون النجدة من « المعز لدين الله » ، فهمّ لمساعدتهم . واتصل بالاخشيديين وحثهم على التعاون معه لإنقاذهم ، كما حذّر الروم وهدّد بنقض الهدنة معهم .

أجل . . . لقد عمل « المعز لدين الله » على إنقاذ « كريت » فاستحث الاخشيديين على الإسراع بنجدتهم ووضع خطة لتعاون الأسطولين المصري والفاطمي على طرد العدو وأن توزع الغنائم والأسلاب بينهما بالعدل ، وفي ذلك يقول « المعز » « لكافور » : « لا تخشى على مراكبك منّا ، فلك

علينا عهد الله وميثاقه انّا لا نكون معهم إلاّ في سبيل الخير ، وإنّا نخلفهم محل رجالنا . ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما أفاء الله علينا ، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا ، حتى يفتح لنا إن شاء الله » .

ولم تمدنا المراجع التاريخية بتفاصيل عن جهود « المعز » ، فهل انضم أسطوله إلى أسطول المصريين ، وهل تم إخراج الروم منها ؟ وكل ما ذكر في هذا الشأن .

إن الربضيين استقروا في « كريت » مـــائة وأربعين سنة ، ثم غزاهم الروم وطردوهم منها في عهد « اريانوس بن قسطنطين » الثامن أمبراطور الدولة البيزنطية سنة ٣٥١ هـ .

ومهما يكن من أمر فإن احتلال الروم لهذه الجزيرة قد تمّ في الوقت الذي كان « المعز لدين الله » لا يزال في بلاد المغرب ، ويظهران اهتمام « المعز » بفتح مصر والشام قد حال دون استرداد هذه الجزيرة من الروم .

الوزير يعقوب بن كلس

« يعقوب بن كلس » ، علم من أعلام الدولة الفاطمية وشخصية من أعظم الشخصيات التي خدمت الدولة الفاطمية ، وأدّت لها أجل الخدمات بالإضافة إلى ما كان لها من أثر بارز في الحياة الفكرية في مصر .

هو « أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس » ، ولد في « بغداد » من أسرة يهودية . ونشأ فيها حيث درس الكتابة والحساب . وبعد ذلك اتخذ التجارة مهنة ومتكسباً له ، فبدأ بمعاونة والده في هذا المجال ثم رحل معه إلى الشام في بعض المسائل التجارية ، ثم جاء إلى « الرملة » . وأقام فيها ، وصار وكيلاً لبعض التجار . ومنها انتقل إلى مصر للقيام فيها ببعض الأعمال التجارية . وكان يحكمها في تلك الفترة « كافور » الاخشيدي وذلك سنة ٣٣٤ هـ . وهناك بحسن سياسته . وجرأته ، ومرونته تمكن من الاتصال « بكافور » . فأحلّه من نفسه محل

العطف والرعاية لما أنسه فيه من علو النفس والجد ، والهمة ، والنشاط والأمانة ، فعينه في ديوانه الخاص ، وأسند إليه مهمة استشارية . وفي تلك الفترة اعتنق الإسلام فزادت حظوته عند «كافور»،ولزم دراسة القرآن،ورتّب له كافور رجالاً من العلماء يدرسونه أصول الدين الإسلامي ، فاجتهد في الدرس ، والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية ، وقد أثار تقرب « كافور » إليه حسد الوزير «جعفر بن الفرات » ، فنصب له الحبائل لإخراجه من البلاد ، وبعد وفاة « كافور » ألقى «ابن الفرات» القبض عليه وحبسه ، ولكن «ابن كلس » فرّ من سجنه ، وهرب إلى المغرب حيث اتصل بالخليفة الفاطمي «المعز لدين الله » ، فعطف عليه ، وقرّبه ، وما زال عنده ، حتى تمّ فتح مصر ، فقدم إليها مع «المعز » .

ويذكر التاريخ :

إن «ابن كلس» منذ أن كان يقوم في مصر بخدمة « كافور » ، كان على اتصال بالفاطميين يزودهم سرّاً بكل شاردة ، وواردة عن مصر وأحوالها ، وبعد أن استتب الأمر «للمعز » ، ونقل عاصمة ملكه إلى «القاهرة» عيّن «ابن كلس» على الخراج ، وجميع وجوه الحسبة والأموال ، فاستمر في عمله ، واكتسب حب وثقة الخليفة ، كما ولاّه

النظر في جميع أمور قصره ، وبعد « المعز » ازدادت مكانته عند الخليفة « العزيز بالله » ، وفي تلك المدة كان قد تعمق في دراسة الدين الإسلامي ، والفقه الفاطمي الجعفري خاصة ، فأصبح من أعلام علماء الدعوة الفاطمية . وإننا لا ندري السبب الذي لأجله اعتقل في قصره سنة ٣٧٣ هـ لمدة عدة أشهر ، ثم نرى الخليفة « العزيز بالله » يطلقه سنة ٣٧٤ هـ ، ويأمر بحمله على عدة خيول ثم يقرأ سجلاً بعودته إلى تدبير أمور الدولة من جديد . . . ذكرت أحد المصادر : أن سبب ذلك اتهامه بقتل « أفتكين » وبدس السم له بالطعام ، ولكن بعد ذلك ثبتت براءته .

كان له في الدولة الفاطمية سلطان ومكانة رفيعة ، وكان محباً للعلم ، وللعلماء مشجعاً لهم . يغدق المنح والعطايا على الكتاب والشعراء . وذكر التاريخ :

إنه كان يجمع عنده العلماء ، والفقهاء ، ويقيم في منزله الكتّاب لنسخ القرآن الكريم ، وآخرون لنسخ كتب الحديث ، والفقه ، والأدب ، والطب ، وكان كل يوم ينصب خواناً لخاصته من أهل العلم والكتاب ، وخواص الاتباع ، والجلساء ، ومن بين هؤلاء :

« الحسين بن عبد الرحيم الزلازلي » مصنف كتاب

« الأسجاع » ، و « التميمي المقدسي » الطبيب ، و « البديهي » الذي أخذ « ابن كلس » عنه علم « العروض » ، أمّا في الفقه الفاطمي فقد بلغ هو نفسه درجة أهّلته لأن يؤلف الكتب ، وقد رتّب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيها مصنفاته على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة ، والفقهاء ، والقراء ، والنحاة ، وجميع أرباب الفضائل ، ووجوه الدولة ، كما أنه رتّب مجلساً آخر للفقهاء ، والمتكلمين ، وأهل الجدل ، وكلهم كانوا يشتركون بالمناظرات بين يديه ، وذكر : أن مؤلفاته بلغت العشرين مجلداً جميعها فقدت ، ولم يبق منها إلاّ « الرسالة الوزيرية » في مختصر الفقه ، وهو الكتاب الذي طلب الخليفة الفاطمي « الظاهر » أن يحفظوه . . . وذكر : أن القضاة كانوا يصدرون فتاويهم بموجبه في الفقه . . . هذا ويجب أن لا ننسى أن « ابن كلس » هو صاحب فكرة تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية ، وقد رتّب للعلماء ، والمدرسين الذين يدرسون فيه الرواتب ، والأرزاق ، ومعنى هذا كله أنه رعى العلم ، والعلماء ، وشجع الأدب ، والأدباء ، فاتسعت بمساعيه الثقافة ، وازداد الإقبال على العلم ، كما أن الشعر لقي على يديه التشجيع ، فقد كان يأذن للشعراء في إنشاء الشعر بحضرته ، مغدقاً عليهم الهبات ، والعطايا .

وذكر التاريخ :

إن الخليفة « العزيز بالله » حزن عليه عندما ابتدأت علته ، وقد عاده في مرضه وقال في إثر ذلك :

« وددت لو انك تبتاع فابتاعك بمالي ، أو تفدى فأفديك بولدي » .

توفي « يعقوب بن كلس » سنة ٣٨٠ هـ ، واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشييعه إلى مقره الأخير ، وخرج الخليفة « العزيز بالله » على بغلة ، والناس يمشون بين يديه ، وخلفه بغير مظلة ، والحزن ظاهر عليه ، وأقام ثلاثة أيام لا يأكل على مائدته ، ولا يحضرها من اعتاد حضورها ، وأقام الناس عند قبره شهراً ، وغدا الشعراء إلى قبره فرثاه مائة شاعر أجيز كلهم . . . وكل هذا يدل على مكانة الوزير « ابن كلس » في نفس الخليفة وفي نفس معاصريه ، والشعب عامة . ومما يجب أن نذكره :

إنه هو الذي أشار على الخليفة « العزيز بالله » باستخلاف القائد « جوهر » على قيادة الجيوش ، وذلك عندما اشتد خطر القرامطة ، كما أنه هو صاحب فكرة التخفيف من نفوذ قبيلة « كتامة » في الجيش الفاطمي ، وكان يقول : بضرورة إدخال عناصر مشرقية في جيش الدولة الفاطمية لإيجاد التوازن .

وكل هذا سبّب غضب المغاربة عليه ، فتآمروا على قتله أكثر من مرة ، ويجب أن لا يغرب عن بالنا بأنه كان على اتصال وثيق بالأتراك وأنه أدخل العديد منهم في الجيش الفاطمي بواسطة صهره التركي « رشيق العزيزي » الذي تولّى إحدى القيادات في الجيش الفاطمي ، ولعب دوراً فعالاً في الحروب الفلسطينية والشامية .

ومهما يكن من أمر فإن الوزير « ابن كلس » جعل من داره قصراً ينافس قصر الخليفة بما كان يدخر فيه من رياش ، وبما يضمه بين جوانبه من حاشية ، وخزائن الكسوة ، والأموال والأشربة ، فكان على كل منها ناظر خاص يديرها ، ويشرف على أمورها كما أنه اتخذ حرساً خاصاً له بلغ عددهم أربعة آلاف من العبيد والمماليك وهم الذين كانوا يطلقون عليهم « الوزيرية » كما رتّب في داره الحجاب نوباً . وأجلسهم على المراتب ، وألبسهم الحرير والديباج ، وقلدهم السيوف ، وجعل لهم المناطق ، وكان له العبيد ، والجواري ، والأطباء الذين كان ينتدبهم للكشف على المرض من هذا الحشد الهائل من الناس ، وكان إلى جانب كل هذا عدد من الكتّاب ، والعلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمتكلمين ، وأرباب الصنائع يلازمون الدار ، ولكل منهم مكان منفرد خاص به .

وأقام «ابن كلس» في داره عدة مطابخ لتقديم الطعام لهؤلاء جميعاً علاوةً على المطابخ الخاصة التي كانت تقوم بخدمته، وخدمة جلسائه، وخواصه، وضيوفه، وفي شهر رمضان كان يقيم مآدب الإفطار للفقهاء، ووجوه الناس، وأهل السّر، والتعفف، ولجماعات كثيرة من الفقراء.
وذكر التاريخ :

إنه خلّف ثروة كبيرة من الأملاك، كما ترك أملاكاً، وضياعاً، وعيناً، وورقاً، وأواني من الذهب، والفضة، والجواهر، ومن الطيب، والعنبر، وثياباً، وفرشاً، وكتباً، وعبيداً، وخيلاً، وبغالاً، وإبلاً، وغلالاً، وخزائن مليئة بالتحف الغالية، وكلها قدرت بأربعة ملايين دينار.
وهنا لا بد من التساؤل؟ لمن ترك «يعقوب» هذه الثروة الضخمة؟ فالتاريخ لم يذكر لنا شيئاً عن أولاده وأسرته سوى قوله: أنه كان له ابنتان زوجهما إلى كل من «فضل بن الفرات» والثانية إلى القائد التركي «رشيق العزيزي» وهناك مصدر ذكر أن دار «ابن كلس» بعد وفاته تحولت إلى ما يشبه المتحف، ونقلت المكتبة التي كانت فيها إلى مكان آخر...
وعلى كل حال فقد ذكر بأن «ابن كلس» بعد أن وطد نفوذه وبسط سلطانه نقل دواوين الدولة كلها إلى داره، فجعل منها

مركز الحكم ، ومصدر السلطات أو دار الوزارة ، وبهذا تكون من ممتلكاته الخاصة ، مضافاً إلى ذلك أنه جعل فيها ديواناً خاصاً للخليفة ، وأعماله ، وشؤونه ، وديواناً لقيادة الجيش ، وأعمال الحرب ، وديواناً للأموال والخراج ، والسجلات ، والإنشاء ، والمستغلات ، وكان على كل ديوان رئيس مسؤول يرجع إليه في الأمور الطارئة ، والمسائل العليا ، كما جعل في داره خزائن الأموال العائدة للدولة ، وللكسوة ، وقسّمها إلى أقسام عديدة ، وجعل على كل قسم ناظر مسؤول .

أمّا هذه الدار فكانت تقع في حارة « الوزيريّة » إلى الجنوب الغربي من القصر الصغير ، وعلى مقربة من « باب الفرج » على الخليج .

ومهما يكن من أمر فإنها كانت مدينة قائمة بذاتها ، فيها كل ما يطلبه الشعب من حاجاته ومتطلباته عندما يحتاج إلى شيء يتعلق بأموره وحياته ، وكنا ذكرنا أنه كان يقيم في هذه الدار بجناح خاص أعده لنفسه ، وفي هذا الجناح كان يخصص أياماً يجتمع فيها مع عامة الناس ، بحيث كان قد أباح لكل من يريد الحضور بحرية لعرض قضاياه ، ومظالمه ، والاستماع إلى الدروس ، وكان أيضاً قد خصّص يوماً في الأسبوع للقضاة ، والفقهاء والقرّاء ، والنحاة ، وأصحاب الحديث بالتفرغ

وإعطاء الدروس ، والوعظ ، والإرشاد على الراغبين ، وطلبة العلم ، وهذا بالإضافة إلى ما كان قد أعدّه في جامع الأزهر ، أمّا مجلس المناظرة بين المتكلمين ، وأهل الجدل فقد كان يعقد في الشهر مرة برئاسته ، وكان هؤلاء قد ارتضوه حكماً فاصلاً بينهم .

وكنّا ذكرنا أيضاً أنه عيّن في داره عدداً من الكتاب لنسخ القرآن الكريم وكتب الطب ، والفقه ، والأدب ، وجعل على مقربة منهم فرقة خاصة مهمتها مقابلة ، وضبط كل ما يكتبه الكتّاب ، ونتيجة لذلك أصبحت لديه مكتبة عظيمة لم يكن يوجد لها مثيل في ذلك العصر .

ومن المشهور عن « ابن كلس » ميله إلى الترف ، والاناقة ، فقد كان يكثر من الملابس الثمينة . وكان في داره خزانة خاصة للكسوة لها ناظر يشرف عليها ، وتضم أفخر الثياب ، وأثمنها ، ومنها الثياب المخصصة للحفلات ، وللأعياد .

واشتهر إلى جانب كل هذا بحبه للبنيان ، والعمران ، وشق الشوارع ، والطرقات ، وإقامة الملاعب ، والساحات ، والحدائق ، حتى أنه أنشأ عدداً من المساكن ، والمساجد . وكانت جميعها تحمل اسمه .

ومهما يكن من أمر فإن «ابن كلس» كان يمتلك طاقة كبرى من الذكاء والعبقرية، فإلى جانب خبرته العالمية في الشؤون المالية. والاقتصادية، كان عالماً بالادارة، ومتضلعاً بمعرفة أحوال الريف، والقرى، والزراعة، وأمور الري، وأنواع الغلال الصالحة، وقد ذكر بأنه أجرى اصلاحات كثيرة في هذا الحقل، وانه لم يكن يسأل عن شيء من كل هذا إلاّ وأجاب عليه عن يقين، ومعرفة، وعلم ودراية.

أجل كان «ابن كلس» كما ذكرنا، بل كان أكثر مما ذكرنا، فضل سياسته الاقتصادية التي مارسها وطبّقها في الديار المصرية، وبفضل حسن إدارته نعمت البلاد بالهدوء والازدهار الاقتصادي، والرفاه المالي، فامتلأت خزائن الدولة بالثروات حتى أن خراج الدولة وصل في عهده إلى أربعة ملايين دينار، غير أن البلاد سنة ٣٧٣هـ مرت بفترة غلاء وفوضى ومجاعة وانتشار الاوبئة نتيجة لانخفاض النيل، وفي هذا العام قبض الخليفة «العزيز بالله» على «ابن كلس»، وحجزه في داره، ومنع الناس من الدخول عليه. والتاريخ لا يذكر الاسباب، ولكن هناك بعض المصادر كما ذكرنا تؤكد اتهامه بقتل «أفتكين» بالسم ولكن يبدو أن الخليفة «العزيز» وثق أخيراً من براءته، وافتقد نصائح الوزير

العلامة وتدابيره ، وحسن سياسته ، في تلك الأيام العصيبة ، ولم يجد في أنحاء الدولة من يحل محله ، وينقذ البلاد مما هي عليه ، فما كان منه إلا أن أطلقه ، وأعاده مكرماً ، فزاد نفوذه سيّما بعد أن وجد العلاج ، وأنقذ الاوضاع . كما أن منزلته في تلك الفترة قد عظمت ، وأقبلت عليه الدنيا مـن جديد ، وهرع إليه الناس يمدون أيديهم ، وهكذا وبفترة قصيرة أعاد إلى البلاد إزدهارها الأول ، وساس أمورها بسياسته الحكيمة ، ونشر ألوية الأمن ، والسكينة ، والاستقرار وظل كذلك حتى مات سنة ٣٨٠هـ .

المصادر التاريخية جميعها أجمعت :

على أن « ابن كلس » كان مسلماً عن حقيقة وإيمان ، وانه كان ديّناً ومتمسكاً بأهداب الدين . يطبق قواعد الاسلام . وأصولها ، واحكامها ، ولكنه كان شيعياً وفاطمياً بدليل أن اهتمامه ، واختصاصه كان متوجهاً إلى الفقه الجعفري ، ويجب أن لا ننسى أنه جعل لهذا الفرع من الدراسات مدرسة في الازهر خاصة به ، وألّف فرقة من المدرسين والفقهاء الاختصاصيين لتدريس هذه المادة ، وتعميمها على الراغبين ، وتعتبر « الرسالة الوزيرية » المصدر الأول والاساس ، لاحكام وفروع هذه المادة .

ومهما يكن من أمر ففي عهده وفد على مصر من العلماء من جميع الأقطار الإسلامية ، وهؤلاء وضعهم تحت رعايته ، ومهد لهم السبيل للدرس والتدريس ، وأجرى عليهم الرواتب والارزاق ومنهم :

« أبو عبدالله محمد بن جعفر » التميمي المغربي المعروف بـ « القزاز » القيرواني النحوي وكان يحمل لقب شيخ اللغة في المغرب . . . ويقولون عنه :

« ان « القزاز » فضح المتقدمين ، وقطع ألسنة المتأخرين ». وحكى « أبو حيّان » التوحيدي :

أنه سأل «التميمي» الشاعر المصري عن « ابن كلس »؟ فقال :

« ذاك رجل له دار ضيافة ، وله زوار كالقطر ، يعطي على القصد ، والتأميل ، والطمع ، والطلب ، وليس عنده امتحان فالراحل شاكر » .

ومن الشعراء الذين خصهم برعايته : « أبو الجرع » ، و « ابن الرقعمق » ، والانطاكي » ، و « الدمشقي » ، و «الرسي » و « ابن بشر » وغيرهم .

وخلاصة القول :

فان الوزير الأجل « ابن كلس » كان كما يطلق عليه مثلاً أعلى في الاخلاص للدولة للفاطمية الفتية في ذلك العهد الزاهر . . . كريم اليد ، جزيل العطاء ، محسناً للناس ، محباً لعمل الخير ، وإذا علمنا أن مائة شاعر رثوه يوم وفاته ، أدركنا منزلة هذا الرجل لدى رجال الأدب . ولكن من هم هؤلاء الشعراء ؟ وأين قصائدهم ؟. . . في الواقع لم يبق من تلك الآثار إلا قصيدة « ابن الرقعمق » التي قالها بمدحه :

لم يدع للعزيز في سائـــر الار
ض عدواً إلاّ وأخمد ناره
ولهذا اجتبــاه دون سواه
واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيد له الوزارة مجـــداً
لا ولا قبل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرمها الدهر
وكر الخطوب بالبذل غاره

ومنها :

هكذا كل فاضل يده تمـ
ـسي وتضحي نفاعة ضرّاره
فاستجره فليس يأمـــن إلاّ
من تفيّا بظله واستجاره

تميم بن المعز لدين الله

« تميم » بن الخليفة « المعز لدين الله » الفاطمي ، من الشعراء البارزين الذين مثلوا في شعرهم الحياة الأدبية في ذلك العصر الزاهر – عصر منتصف القرن الثالث للهجرة . . . وتعتبر حياته مقفلة من جميع نواحيها ، وغامضة أشد الغموض في أبوابها ، فالمراجع التي بين أيدينا لا تعطينا إلا النذر اليسير عن سيرة حياته الانيقة العابثة .

انه نجل الخليفة الفاطمي « المعز لدين الله » البكر ، فاتح مصر ، وأخ الخليفة « العزيز بالله » الذي كثيراً ما كان يطنب بمدحه ، ويهيم بحبه ، ويظهر عاطفته نحوه . . . ولعل كل هذا ما أورده « الثعالبي » في « اليتيمة » ، و « الباخرزي » في « الدمية » ، و « ابن خلكان » في « الوفيات » ، و « ياقوت » في « معجم الأدباء » ، و « ابن فضل الله » في « المسالك » ، و « المقريزي » في « الخطط » ، و « ابن تغري » في « النجوم الزاهرة » ، و « السيوطي » في « حسن المحاضرة » .

ولد « تميم » سنة ٣٣٧هـ في « المهديّة » بالمغرب ، وهي المدينة التي بناها « عبدالله المهدي » سنة ٣٠٨ هـ ، واتخذها عاصمة للدولة الفاطمية ، وقد ظلّت كذلك حتى بنى الخليفة « المنصور بالله » مدينة « المنصوريّة » سنة ٣٣٧ هـ بعد نجاحه في إخماد ثورة « أبي يزيد مخلد بن كيداد » الخارجي . تلك الثورة التي دامت زهاء خمسة عشر عاماً .

فولادة « تميم » إذن جاءت بعد القضاء على هذه الثورة العاتية بعام واحد أي في خلافة جده « المنصور بالله » . ومن الطريف حقاً أن نجد في كتب الفاطميين أن أباه « المعز لدين الله » كني « بأبي تميم » . و« تميم » لمّا يولد بعد . وهذا يدل على أن « تميماً » كان الابن الأكبر « للمعز » ، ومما هو واضح أيضاً أنه كان « للمعز » ثلاثة أولاد آخرهم : « عبدالله » و « العزيز » و « عقيل » ، نشأوا في قصر الخلافة الفاطمية بـ « المهديّة » ثم بـ « المنصوريّة » ، وأخيراً جاؤوا إلى مصر عندما انتقل إليها والدهم « المعز لدين الله » .

ومهما يكن من أمر فاننا نكاد لا نعرف كيف نشأ « تميم » ولا نعلم شيئاً عن أساتذته وعن المربين الذين تولوا تربيته ؟ بالرغم مما نعرفه عن شغف جده « المنصور بالله » ، ووالده « المعز لدين الله » بالعلوم والأدب والشعر ، وتشجيعهم الشعراء

والأدباء ، ورغبتهم بجمع ، واقتناء الكتب النفيسة ، فهم لم يتركوا لنا ما ينير السبيل إلى معرفة أي شيء عن حياتهم الخاصة ، وحياة أولادهم . أو لعلهم تركوا الكثير ولكنه ضاع كما ضاع غيره من الآثار والتراث الفاطمي .

ومن جهة ثانية فان تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب لم يذكر لنا إلاّ أسماء ثلاثة شعراء عاشوا في ظل الدولة الفاطمية في المغرب ، ويأتي في طليعتهم الشاعر الكبير «ابن هانيء» الأندلسي . و «أحمد المروزي» ، و «علي بن محمد» الأيادي . وكما هو الحال ، فان الأيام لم تبق لنا من انتاجهم سوى بعض المقاطع ذكرها القاضي «النعمان» في كتابه «افتتاح الدعوى» وهي على قلتها لا تعطي أي دليل ، ولا تنير السبيل للوقوف على حيــاة هؤلاء الشعراء . وهذا القول لا ينطبق على الشاعر «ابن هانيء» الذي ترك لنا ديواناً كاملاً .

قدم «تميم» إلى مصر وهو في سن الخامسة والعشرين ، وسكن القصر الشرقي الكبير في «القاهرة» ، ويظهر أن «المعز لدين الله» كان شديد الحرص على ألاّ يعهد إليه بأي عمــل من الأعمال ولا ندري سبب ذلك ؟ فعندما هاجم القرامطة مصر سنة ٣٦٣ هـ عهد «المعز» إلى الأمير «عبدالله» ابنه الثاني بقيادة حملة لحرب القرامطة ، بينما ظل «تميم» بمعزل

عن كل عمل سياسي ، ويظهر أنه أهمل إهمالاً مقصوداً وأنه تعرض إلى الجحود والنكران مما جعله ينصرف إلى الشعر ، وعندما مات الأمير «عبدالله» سنة ٣٦٤هـ تطلعّ الناس إلى «تميم» مرة ثانية . وظنّوا أنه سيكون ولياً للعهد ، ولكن «المعز لدين الله» صرفها عنه للمرة الثانية ، وجعلها في ولده الثالث «العزيز بالله» . وعندما توفي «المعز» سنة (٣٦٥هـ) تولّى الخلافة ولده «العزيز» . فعرف «تميم» أن الأمر خرج من يده للأبد ، وخاصة بعد أن أنجب «العزيز» ولده «الحاكم بأمر الله» .

ويذهب «ابن الأبّار» : إلى أن «المعز» لم يولي «تميماً» الخلافة بدعوى أنه لم ينجب ولداً ، ولكن الحقيقة تخالف ذلك . فقد كان «لتميم» ولداً اسمه «علي» وبه كان يكنّى . . . إذن فقول «ابن الأبّار» لا ينطبق على الحقيقة .

أجل . . . استسلم «تميم» إلى حكم الأقدار الّتي حرمته من الملك ، وأبعدته عن الخلافة ، فلم نسمع أنه دبّر فتنة لزعزعة أخيه ، أو قام بمؤامرة على سلامة الدولة ، أو أجرى عملاً فيه الخروج على القوانين . . . بل على العكس أظهر خضوعه ، وأعلن طاعته ، وحبه لأخيه الخليفة «العزيز بالله» الذي بدوره قدّر له هذه المواقف ، فأغدق عليه الأموال

الطائلة وجعله يعيش حياة يحسدها عليه الملوك ، فقد ذكر أن الخليفة « العزيز » وهبه البستان المعروف « بالمعشوق » بخطة « راشدة » ، وقد عرف أيضاً فيما بعد باسم « جنان الأمير تميم » ، وجعل له القصور المنيفة على ضفاف بركة « الحبش » .

ويروي « ابن الأبّار » أيضاً :

إن الخليفة « العزيز » تنزّه مرة على بركة « الحبش » ، فلمّا قرب من قصر أخيه سأل عن « تميم » ؟ فخرج إليه راجلاً حافياً حتى لقيه ، فسلّم عليه بالخلافة وقال :

يا أمير المؤمنين . . . قد وجبت على عبدك الضيافة . . . قال : نعم : ودخل معه إلى بستانه ، وقد أمر بجنيبة من الجنائب التي كانت بين يديه ، وأقسم على « تميم » أن يركبها ويسايره ، فلمّا توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهب عليه ، فتعجّب منه واستظرفه ودنا من شجرة فأخذ منها ليمونة وإذا مكتوب عليها :

أنا الليمون قد غذيّت عروقي
ببرد المـــاء في حرزٍ حريز

فجعلها في كمه وقال :

هذه ضيافتي عندك ، وانصرف إلى قصره ، فبعث إلى

« جعفر بن قرهب » صاحب بيت المال فقال له : ما عندك من الدنانير ضرب هذا العام ؟ وكان العام في أوله . . . فقال له :

مائة وستون ألف ، فأمر بحملها من ساعته إلى « تميم » مع « راشد العزيزي » وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذه على حياتك .

هكذا كانت صلة الأخ بأخيه ، ولكن هذا الصفاء كانت تشوبه بعض الثغرات فيتسرب من خلالها الوشاة والحاسدون ليقوموا بين الخليفة وأخيه ، وكم في ديوان « تميم » من إشارات إلى ما كان يسعى به الوشاة ، وكل هذا كان من الأسباب التي أدت مرة إلى نفي « تميم » إلى « الرملة » ، ثم عفى عنه « العزيز » بعد فترة .

عاش « تميم » في مصر حياة اللهو والترف ، فقد وجد في البيئة المصرية غير ما كان قد ألفه في المغرب . . . فهنا المتنزهات ، والديارات ، والأسباب ما يوافق مزاجه ، وهواه . فكان يكثر من الخروج إلى المختار بجزيرة « الروضة » ، وإلى دير « القصير » ، ودير « مرحنا » ، وهناك يشارك المصريين في لهوهم ، وطربهم ، ويكثر من الشرب ، والعبث ، والبذخ الشديد ، والتأنق في كل شيء . . . وذكر :

إنه كان يركب على عشاري في النيل ، ويتبعه أربعة زوارق مملوءة بالفواكه . والطعام والشراب ، فإذا كانت الليالي مقمرة وإلاّ كان معه من الشموع ما يعيد الليل نهاراً ، وإذا مرّ على طائفة ، واستحسن من غنائهم صوتاً أمر بإعادته وسألهم عمّا عزّ عليهم فيأمر لهم به ، ويأمر من يغني لهم ، وينتقل من عندهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليله ، ثم ينصرف إلى قصره وبساتينه فلا يزال على هذا الحال حتى تنقضي أيام الأعياد ، ويتفرق الناس .

وكان « تميم » كريماً يسرف في الكرم إلى حد السفه ، مقبلاً على الشراب ، محباً للسماع . مشاركاً أصحاب اللذة ، واللهو ، والقصف ، والمجون ، وقد اتخذ لنفسه عدداً من الأصدقاء ، ومن بينهم « بني الرسّي » وهؤلاء هم أسرة من العلويين الحسينيين الذين أقاموا دولة الزيدية في اليمن ، ولا ندري لماذا جاءوا إلى مصر في تلك الأيام ؟ وكان منهم : « أبو القاسم » نقيب الفاطميين في مصر ، وأحد الذين عاصروا الاخشيد ، وكان شاعراً مجيداً . وقد توفي سنة ٣٥٢ هـ ، وكان ولداه «القاسم» و«إبراهيم» من الشعراء أيضاً ، والأخير كان من أصدقاء «تميم» ، أما «الحسين بن إبراهيم » فكانت صلته أمتن ، وكان يتهادى ويتراسل بالشعر مع « تميم » ،

ويدعو أحدهما الآخر للقصف والشراب ، وكان أيضاً على صلة ببعض شعراء مصر أمثال : « صالح بن شديد » ، و « ابن أبي العصام » ؛ و « ابن أبي الجوع » . و « الروذ باري » وغيرهم .

هذا كل ما نعرفه عن حياة « تميم » ؛ وهذه هي أكثر النواحي التي جاء على ذكرها التاريخ وهي على العموم لا نراها كافية للنقّاد ، وللباحثين الذين يودون دراسة هذا الشاعر .

ومهما يكن من أمر فلو أن الاقدار ساعدتنا على معرفة الأسباب التي أدّت إلى إبعاد « تميم » عن الخلافة الفاطمية . ولو اننّا علمنا هذا أو بعضه ، أو أن الظروف خرجت عن تنكرها لنا ، وهيأت لنا الأسباب للاطلاع على المزيد من المصادر عن هذا الشاعر ، وعن نشأته ، وطفولته ، وعهد شبابه وعن حياته في المغرب ، إذن لاستطعنا أن نفيه حقه من الدراسة الصحيحة الكاملة . . . ولكن ما حيلتنا إذا كانت كتب الأدب ، والسير ، والتاريخ جاءت جميعها خالية من آثاره وخاصة الفترة التي عاشها في المغرب . فهل نصدق أن « تميماً » لم يقل الشعر في المغرب ؟ وهو الشاعر الوجداني المطبوع سيما وأن المدة التي قضاها في المغرب تربو على الخمسة والعشرين عاماً . ومن الطبيعي أنه في هذا العهد من الشباب تتفتح الأذهان ،

ويطيب التغني بالحب ، والشباب ، والجمال ، وهل صحيح أن تطلعاته إلى ولاية عهد الخلافة الفاطمية كانت تشغله عن قرض الشعر ؟ ولكن ثبت أن أخاه « عبد الله » وقعت عليه التسمية لولاية العهد وهو في المغرب ، إذن فلا مجال إلى تصديق هذا الاحتمال ، وهل من الممكن أن يكون المغرب على سعته خال من الجمال ، والمظاهر البديعة ، والخمرة والندمان حتى جعل هذا يحجر الشاعرية في صدره ، فلا تتفتق هذه الشاعرية إلاّ في الديار المصرية ؟ هذه جميعها احتمالات ، واستفهامات ، نطرحها على أنفسنا ، ونحن نستعرض حياة « تميم » ، ولكن يبدو أن الأفق أمامنا ظهر مشحوناً بالغيوم ممّا يحجب الأجوبة ، وهكذا تظل الحقيقة في عالم الغيب .

في الواقع . . . أن « تميماً » قال الشعر منذ الصغر ، فهو شاعر مطبوع عاش في المغرب .وأجواء المغرب مليئة بالندى ، والظلال ، والجمال ، كما أن طبيعتها رائعة وجميلة ولا تقل عن أجواء الأندلس ، وباعتقادي أن شؤون الخلافة لم تكن لتقف حائلاً بينه وبين قول الشعر ، لأن « تميم » منذ الجولة الأولى صرف فكره عنها ، والدليل أنه لم يقاتل لأجلها ، كما لم تبدر منه أية بادرة تنم عن سعيه في سبيلها ، وكيف ذلك وهو من أنصار الحرية الشخصية ، والانطلاق ، ويريد

من صميم قلبه أن لا يقيد نفسه بقيود الخلافة الثقيلة ، ويحمل على كتفه أعباء تنوء بحملها الجبال ، ممّا يحرمه من لذة الحياة ، وأفراحها ، وجمالها .

كل هذه أسباب تجعلنا نقول ونحن مطمئنون : بأن شعر « تميم » الذي نظمه في المغرب قد ضاع ، كما ضاع غيره من الآثار الفاطمية . كما أنه لم يصل إلينا من شعره في مصر إلاّ القسم القليل .

هذه ناحية جديرة بالاعتبار بالنسبة لهذا الشاعر . بل أراها تشكل الأثر البارز في حياته ، فلو وصلت إلينا بعض مقاطع من شعره المغربي على الأقل ، أو لو عرفنا عنه المزيد من الأخبار . أو لو ان الظروف ساعدتنا على كل هذا أو جزء منه . إذن لاستطعنـــا تكوين فكرة صحيحة عن نشأته ، وحياته ، وشبابه ، ولكن كل هذا جاء غامضاً أشد الغموض كما قلنا ، ونحن من جهة أخرى نستغرب كيف أن شعر « ابن هانيء » الأندلسي ويعتبر شاعر البلاط الفاطمي في المغرب لم يفقد منه شيئاً على ما فيه من المديح العاطفي الخارج عن المألوف للخليفة « المعز لدين الله » بينما يفقد شعر « تميم » ابن « المعز » نفسه ، وهو الشاعر الوجداني الرقيق الذي كان شعره صادقاً ، ومعبراً عن النواحي الواقعية ؟

من هنا أقول :

لعلّ هناك أسباباً أخرى لم يتوصل أحد من الباحثين إلى معرفتها ؟ بل لم يخطر ببال أحد من النقاد أن يوجه الأنظار إليها ، وأعتقد أنها السبب المباشر الأول في أبعاد « تميم » عن مركز الخلافة الفاطمية ، وضياع شعره في المغرب . . . انها قصة أم « تميم » .. فالمعلوم أن الخليفة «المعز لدين الله» ، تزوّج بامرأة مغربيّة ولدت « تميم » ثم ماتت ، فتزوج ثانية بامرأة من الأسرة الفاطمية فأنجبت له باقي الأولاد ، والبنات ، فهل يكون في هذا كله السبب الذي أبعده عن الخلافة ؟ والحقيقة : فإن هذه قصة غير عادية وجديرة بأن تنال من الاهتمام . . . ونعود للتساؤل والقول :

متى فكّر الخليفة « المعز » بنزع ولاية العهد عن ولده الأكبر « تميم » ؟ ولماذا خرج عن التقليد الفاطمي بتولية الابن الأكبر ؟ فهل كان هناك ضغطاً عائلياً وجه إلى « المعز » من الأسرة فقضى بإبعاد « تميم » عن الخلافة ؟ كل هذا يثير في النفس موجة من الاستغراب ، فالتاريخ لم يذكر الأسباب ، واكتفى بالقول : بأن الأسباب هي : انجراف « تميم » في تيار الخمرة ، والمجون ، والاستهتار ، والخروج على قواعد

الآداب ، في بلد يحافظ على العادات ، والتقاليد ، ويعتبر القاعدة الأولى للعالم الإسلامي .

ذكره « ابن الفضل العمري » في كتابه « مسالك الأبصار » فقال :

« تشبّه « تميم » بابن عمه « ابن المعتز » وتشبّث بذيله »

وقال « ابن الأبّار » :

شاعر أهل بيت العبيديين (ويقصد بيت عبيد الله المهدي) غير منازع ، ولا مدافع ، وكان فيهم « كابن المعتز » في بني العباس . . . غزارة علم ، ومعاناة أدب ، وحسن تشبيه ، وإبداع تخييل ، وكان يقتفي آثاره ، ويصوغ على مناحيه في شعره :

وقال « المصري » في « زهر الآداب » :

كان يحتذي أمثال « ابن المعتز » ، ويقف في التشبيهات بجانبه ، ويفرغ فيه على قالبه .

لقد أعطى « تميم » الطبيعة القسم الأكبر من نتاج وجدانه ، وغنّاها أطيب ألحانه ، وخاصة عندما يكون محبوبه إلى جواره والقمر شاهد على مناجاته ، وحينما تتجاوب الحمائل بأنغام الأعواد ، وصخب السقاة ، وقبل العشاق ، والسمّار :

خليليّ لا عيش سوى اللهو والصبا
ولا لهو إلاّ في سماعٍ وفي خمرِ
فحثّا كؤوس الراح صرفاً فإنني
أرى الدهر صعباً لا يدوم على أمرِ
إذا الدهر أعطاك القياد فلا تثقْ به
فإن قصاراه التنقـل للغدر
فاعطِ من العيش الشباب نصيبه
ولا تنتظر كر البياض على الشعرِ

ويعبّ من الليل ما يشاء ، وكأنه راهب يجلس أمام شاطىء النيل الهاديء ساعة الدغشة المتلألئة يقطف منها الصور والألوان، ليضعها على لوحاته الخالدة ، والنجوم أمامه ترمي شعاعاتها ورشرشاتها من الأزرق حفنة . ومن الأخضر حفنات ، وعندما يكسو الضباب شاطىء النيل كالغلالة الشفّافة ، وحينما يهب النسيم العليل ، ليداعب الورود النابتة على جوانب الماء هامساً في أذنها أغاني الحب والشوق والجمال :

إذا حان من شمس النهار غروبُ
تـذكّر مشتاق وحنّ غريب
ألا أبلغا القصرين فـالمقس انني
إليهنّ مـذ فـارقتهنّ كئيب

إلى ساحتي دير القصير إلى الربا
فمصرهما حيث الحيــاة تطيبُ
منازل لم يلبس بها العيش شاحباً
ولم تلفَ منهنّ الخطوب تنوب
وإني لأهوى الريح من كل ما بدا
بريّاه من ريح الشمالِ هبوب
وما بلدُ الإنسان إلاّ الذي لهُ
بــه سكن يشتــاقه وحبيب

ويشرب ويخلّق بروحه ، ويغني الروض والورد والنسيم ، تاركاً في أذن الدهر الحب واللحن المضمخ بالعبير :

ربَّ ليــلٍ وصلته بصبوحٍ
وصباحٍ وصلتــه بغبوقِ
ونعيمٍ جذبت طيب الأماني
فيه جذب الصدور للمعشوقِ
وكؤوس المدامِ تحمل منهــا
نسم المسك في لميع البروقِ
لا أحب الحياة إلاّ لأمرين مدى
اللهو أو قضــاء الحقوق

والخـيمة :

فإن « تميم » كان يتذوق الحياة بقلب ظامىء إلى اللذات . ومقيد في قيود الفضيلة ، ولكنه كانت تطغي عواطفه أحياناً على عقله ، فيظهر في صورة الجامح الذي لا يمكن أن يرده شيء عن غايته ، ولا شك أنه كان يجيب داعي الشباب في نفسه ، ويمسح بها عن قلبه آلام الحياة واشجانها .

لقد عاش « تميم » في بيت الملك ، وفي ربى الترف ؛ وظلال النعيم ، وشاهد ما لم يشاهده إنسان من ألوان الحياة في « القاهرة » المعزية التي كانت تموج بألوان الترف واللهو ... فمن قيان ، وندامى ، ومغنين ، إلى مجالس راح ، وجواري متعددة الألوان والأجناس وعليهن شارة الظرف والجمال . فاضطرمت عواطف الشباب المتأججة في صدره ، وعرف بحبه للصيد وتذوق الغناء ، وتلحين الألحان ، وبشرب الراح ، ووصف مجالس الندامى . كما تفوّق وأبدع بوصف الحب ، ولذاته ، وخلاعاته ، ولهوه ، ومجونه ، وإننا نرى في روحه الصنعة المصرية الخفيفة الظل ، والذوق الأندلسي الشعري الذي اصطبغ باللون الجذّاب ، وبالديباجة الرائعة ، وبالموسيقى الشجية التي تهز المشاعر ، وتحرك الخواطر . كما نرى في شعره أيضاً جلباباً نسجه البيان المغربي الرائع ، ودبجه خيال « المهدية » ، و « سجلماسة » وغيرهما من المدن المغربية التي نمشت فيها الطبيعة أبدع صورها ، وأجمل ألوانها :

ولي صاحبٌ لا يمرضُ العقلَ جهله
ولا تتأذى النفس منه ولا القلبُ
إذا قلت لا في قصة لم يقل بلى
وإن قلت أصبو قال لا بد أن أصبو
وإن قلت هاك الكاس قال مبادراً
ألا هاتها طاب التنادم والشربُ
غدوتُ به يوماً إلى بيت حانة
وللغيم دمعٌ ما يكفُّ له سكب
فأفضى بنا الادلاج بعد تعسفٍ
إلى زولة شمطاء منزلها رحب
فقالت لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً
وقلّ لكم مني البشاشة والرحب
من أنتم ؟ فقلنا عصبة من بني الصبا
دعاهم إليك القصف والعزف واللعب
وراح نفى أقذاءها طول عمرها
فجاءت كما يذري مدامعه الصبُّ
كأنَّ سراجاً في ترائب دنها
إذا أقبلت من ليلة الدن تنصبّ
فقلت لها هاتي بها وتعجلي
ولا يك فيما قلت خلف ولا كذب

فجاءت تجرُّ الزقَّ نحوي كأنه
على الأرض زنجيٌّ بلا هامةٍ يحبو

وخلاصة القول :

فإن شعر « تميم » كان معبراً عن حياته الخاصة أصدق تعبير ، كما عبّر عن حياة الطبقة المترفة . . . وعلى العموم فقد كان يتذوق الحياة تذوق الشاعر الفنّان ، وينظر إليها نظرة الإنسان المرهف الملهم :

ولولا احتمال النفس كل مشقةٍ
إذن لتساوى في العلا الحرّ والعبدُ
كذا السيف لا تستخبر العين عتقه
إذا لم تفارقه الحمائل والغمدُ
وليس لكل الناس يستحسن الثنا
كما ليس في كل الطلى يحسن العقدُ

ابن هانيء الاندلسي

عرف بأنه شاعر « المعز لدين الله » ، وقد اقترن اسم كل منهما بالآخر . هو : « محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون » الأزدي الأندلسي . ولد بقرية « سكون » من قرى مدينة « إشبيلية » سنة ٣٢٠ هـ أو سنة ٣٢٦ هـ على اختلاف الروايتين . يكنّى بأبي « القاسم » . وبأبي « الحسن » ويقال له : « ابن هانيء الأندلسي » تمييزاً عن « الحسن بن هانيء » الحكمي المشهور بأبي نؤاس . قالوا :

إنه من ولد « يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صُفْرَة الأزدي » . وقيل : بل هو من ولد أخيه « روح بن حاتم » . و « يزيد بن حاتم » هذا هو الذي سيّره « أبو جعفر المنصور » العباسي في ستين ألف فارس إلى أفريقيا لقتال « عمر بن حفص » فوصلها سنة ١٥٤ هـ وظفر « بعمر » المذكور وقتله . فلما مات « يزيد » سنة ١٧٠ هـ استعمل

« هرون الرشيد» أخاه « روحاً » على أفريقيا ، وكان « روح » قبل هذا نائباً على فلسطين .

ينتسب إلى « الأزد » وهي قبيلة يمنية تجمع فروعاً كثيرة ، ولهذا سمّى قصائده « أزدية يمنيّة » وكان والده « هانيء » من إحدى قرى « المهدية » بالمغرب ، وكان أيضاً شاعراً أديباً فانتقل إلى الأندلس ، وأقام في « إشبيلية » حيث ولد له « محمداً » ، فنشأ فيها وحصل له حظ وافر من الأدب ، ونظم الشعر فمهر فيه ، وكان أكثر تأدبه بدار العلم في « قرطبة » ثم استوطن والده « البيره » ، وكان مع مهارته في الشعر ، عارفاً بعلوم أخرى لا سيما علم الهيئة كما يظهر من بعض قصائده ، كما كان له حذقٌ ثابت في فك المعمّى .

أول ما اتصل به « ابن هانيء » صاحب « إشبيلية » فأعزه وأكرمه ، وأقام معه زمناً ، ثم فارقه . ولكنه لم يمدحه لأن ديوان « ابن هانيء » لا يوجد فيها قصيدة واحدة بمدحه .

من « إشبيلية » خرج إلى عدوة المغرب فلقي القائد « جوهر » الصقلي قائد « المعز لدين الله » الفاطمي فامتدحه وأعطاه مائتي درهم . فاستقلها . وسأل عن كريم يمدحه فقيل له : عليك بأحد الجعفرين : « جعفر بن فلاح » أمير

« كتامة » وقائد الفاطميين ، و « جعفر بن علي بن حمدون » . المعروف « بابن الأندلسية » ، وكان « جعفر بن علي » بـ « المسيلة » وهي من مدن « الزاب » والياً عليها مع أخيه « يحيى » فقصدهما ومدحهما بقصائد رقيقة ، فبالغا في إكرامه والإحسان إليه ، وسارت أشعاره فيهما في كل مكان ، وظلّ عندهما في أرغد عيش إلى أن نما خبره إلى الخليفة « المعز لدين الله » الفاطمي ، فطلبه منهما ، فوجهاه إلى « المنصوريّة » في جملة طرف ، وهدايا بعثا بها إليه . فأقام عند « المعز لدين الله » ، إلى أن كان من أمر قتله ما سوف نذكره ، ويبدو أنه لقي المصاعب الكبرى حتى وصل إلى البلاط المعزي الفاطمي .

امتدح « ابن هانيء » الخليفة « المعز » بغرر القصائد ، وعيون الشعر ، فبالغ « المعز لدين الله » في الإنعام عليه ، وأقام عنده ، وهو منعّم مكرّم إلى أن ارتحل « المعز » إلى مصر ، وأن الحظ الذي حصل له عنده أجل من يوصف ، وبالجملة لم يكن هناك ممدوح أعز شاعره كما أعزّ المعز «ابن هانيء» ، ومما يجب أن يشار إليه أنه لمّا أنشده قصيدته التي مطلعها :

هل من أعقة عالج يبرينُ
أم منهما بقر الحدوج العينُ

أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال : يا أمير المؤمنين مالي موضع يسع الدست إذا بسط ، فأمر له بقصر منيف ، ولما بلغ « المعز » خبر وفاته وهو بمصر تأسف كثيراً وقال :

لا حولَ ولا قوة إلاّ بالله . . . هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

ذكر التاريخ :

إنه بينما كان يسير متوجهاً إلى مصر ملتحقاً بالخليفة « المعز لدين الله » ، وجد مقتولاً بجانب البحر . . . وقال التاريخ :

إنه لمّا توجه « المعز » إلى الديار المصرية شيّعه « ابن هانيء » ، ورجع لأخذ عياله والالتحاق به،فتجهّز ،وتبعه، ولمّا وصل إلى « برقة» أضافه شخص من أهلها فأقام عنده في مجلس الانس ، ويقال أنهم عربدوا عليه فقتلوه ، وقيل خرج من تلك الدار وهو سكران فنام في الطريق ، وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته ، وقيل أنه وجد في ساقية في « برقة » مخنوقاً وكان ذلك سنة ٣٦٢ هـ ، وعمره ستة وثلاثون سنة ، وقيل اثنتان وأربعون .

ومهما يكن من أمر فقد اتفق « ابن خلدون » ، و« أبو

الفداء » ، و « ابن الأثير » على أن « ابن هانيء » كان مع « المعز » عندما توجه إلى مصر ، ولما وصل إلى « برقة » قتل غيلة ، أما « ابن الخطيب » فذكر أن « ابن هانيء » توجه إلى مصر ليلحق « بالمعز » ، وعندما وصل إلى « برقة » سكر ونام عرياناً وكان البرد شديداً فمات ، ويخالف هذه الرواية « ياقوت » الحموي الذي يؤكد أنه مات قتلاً .

ومن الواضح أن الشاعر « ابن هانيء » مدح « المعز » وهنأه بالظفر الذي أحرزه جيشه على الروم بعد معركة « المجاز » التي وقعت سنة ٣٥٤ هـ في أرض « صقلية » بعد افتتاح حصن « رمطة » ووقوع الروم في الخندق ، وانتصار جيش الفاطميين في البر ، والبحر .

والده

أبوه من إحدى قرى « المهدية » كما قلنا ، وكان شاعراً وأديباً ، وهناك مصادر فاطمية تؤكد أنه كان من الدعاة الذين عملوا تحت خدمة « القائم بأمر الله » ، و«المنصور بالله » .

وانّنا لا نعلم من هم أساتذته الذين درس عليهم ، ولكن هناك بعض المصادر تؤكد أنه درس على : « إبراهيم بن عبد الله » المعافري من أهل « إشبيلية » ، وكان بصيراً بالشعر ، مطبوعاً فيه وهناك « محمد بن يحيى بن عبد السلام » الأزدي من أهل « قرطبة » وكان حجة باللغة العربية ، كما أن « ابن هانيء » درس الفلسفة على « محمد بن عبد الله بن مسرّة » ، و « خليل ابن عبد الملك » ، و « محمد بن إبراهيم حيّون » .

قال الوزير « محمد لسان الدين بن الخطيب » :

كان « ابن هانيء » من فحول الشعراء ، وأمثال النظم ،

وبرهان البلاغة ، لا يدرك شأوه ولا يشق غباره ، مع المشاركة في العلوم ، والنفوذ في غلث المعمّى .

وجرى ذكره في « تلخيص الذهب » بما نصه :

العُقاب الكاسرة . والصمصامة الباترة . والشوارد التي تهادتها الآفاق . والغايات التي عجز عنها السباق .

وذكره « ابن شرف » في مقاماته ، فقال :

وأما « ابن هانيء » فنجدي الكلام ، سردي النظام ، وله غزل معدّي ، لا عذري . ويقول « ابن خلكان » :

وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ، ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو عندهم « كالمتنبي » عند المشارقة .

ويفتخر به « أبو الوليد الشقندي » في مناظرته « لأبي يحيى بن المعلم الطنجي » في مجلس صاحب « سبتة » ، وقد أوردها « المقري » صاحب « نفح الطيب » بكمالها فقال : في وصف أهل الأندلس هل منكم الذي طار في مشارق الأرض ، ومغاربها قوله وهو : « أبو القاسم محمد بن هانيء » الألبيري .

فُتِقَتْ لكم ريحُ الجلاد بعنبر
وأمدَّكم فلقُ الصباحِ المسفر
وجنيتمُ ثمرَ الوقائع يانعاً
بالنصر من ورق الحديد الأخضر

ثم قال «الشقندي» وقد سمعت فائيته في النجوم، لولا طولها لأنشدتها هنا فإنها من أحسن ما قيل في معناها .

ويذكره «الحُميدي» في سفره فيقول :

«محمد بن هانيء» شاعر أندلسي كثير الشعر ، محسن مجوَّد إلا أن قعقعة الألفاظ أغلب على شعره . أنشدني له «أبو محمد عبد الله بن عثمان بن مروان» العمري النحوي قوله في «جعفر» القائد المعروف «بابن الاندلسية» :

المدنفان من البرية كلّها
جسمي وطرفٌ بابليٌ أحورُ
والمشرقات النيّرات ثلاثة
الشمس والقمر المنير وجعفر

ومما استحسنوا قوله :

ولمّا التقت ألحاظنا ووشاتنا
وأعلن سر الوشي ما الوشيُ كاتم

تأوّه أنسيٌّ من الخدر ناشجٌ
فأسعد وحشيٌّ من السدر باغمُ

ويشبهه « محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي » المعروف « بابن الأبّار » « بأبي تمام » بقوله :

هو وأبو عمرو « ابن دراج » القسطلي نظيران « لحبيب » و « المتنبي »» .

ويمدحه « الفتح بن خاقان » بقوله :

هو علقٌ خطير ، وروض أدب مطير ، غاصَ في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون ، وبهرج بافتنانه فيه كل الفنون ، وله نظم تتمنّى الثريا أن تتوج به ، وتقلّد ، ويود البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولّد . . . زهت به الأندلس وتاهت ، وحاسنت ببدائعه الأشمس وزاهت ، فحسد المغرب فيه المشرق ، وغصَّ به من بالعراق وأشرق ، غير أنه نبت به أكنافها ، لأنه سلك مسلك المعري ، وتجرّد من التدين ، وأبدى الغلو ، فمجّته الأنفس ، وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار ، وما عرّج على هذه الديار ، فله بدائع يتحيّر فيها ويحار ، ويخال لرقتها أنها أسحار ، فإنه اعتمد التهذيب ، والتحرير ، واتبع في أغراضه الفرزدق مع جرير ، وأمّا تشبيهاته فخرق فيها المعتاد ، وما شاء منها اقتاد .

ويقول « الذهبي » :

وأبوه شاعر أديب وليس يلحقه أحد في الشعر من أهل الأندلس وهو نظير المتنبيء .

ويقول « ابن رشيق » في باب « اللفظ والمعنى » :

وفرقة أصحاب جلبة ، وقعقعة بلا طائل معنى ، إلاّ القليل النادر ، «كأبي القاسم ابن هانيء» ، ومن جرى مجراه فإنه يقول في أول مذهبته :

أصاختْ فقالت وقعُ أجردَ شيظمِ
وشامتْ فقالت لمعُ أبيضَ مِخذمِ
وما ذعرت إلاّ بجرسِ حليِّها
ولا رمقت إلاّ بُرًى في مُخدَّمِ

وينقل « تقي الدين أبو بكر علي » المعروف « بابن حجة » الحموي في باب « تجاهل العارف » للمبالغة في تعظيم الممدوح قول « ابن هانيء » .

أبني العوالي السمهريّة والسيوف
المشرفيّة والعديد الأكثر
من منكم الملك المطاع كأنه
تحت السوابغِ تبّعٌ في حميَرَ

كلّ الملوك من السروج سواقط
إلاّ الممَلّك فوق ظهر الأشقر

يقول : إنه لما تجاهل في هذا البيت عن معرفة الممدوح ، ترجّل الجيش بكامله تعظيماً للمدوح إذ هو ملكهم ، وهذه القصيدة سارت بها الركبان ، والحداة تشدو ببلاغتها ، وهي أحب من « قفا نبك » في الشهرة لفصاحتها ومطلعها :

فُتِقَتْ لكم ريحُ ...... الخ .

ويقول « ياقوت » الحموي :

أبو القاسم الأزدي الأندلسي ... أديب شاعر مفلق أشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة ، وهو عندهم كالمتنبيء عند أهل المشرق .

ويقول : « يوسف بن يحيى بن الحسين بن المؤيد » :

« ابن هانيء » الأندلسي الأزدي المشهور بمتنبيء المغرب شاعر « المعز لدين الله » المشهور ... فاضل ينظم الكواكب ، ويترك الطائرين للحاقه صرعى على المناكب ... إن وصف الوغى ترك أبا الطيب كالببغاء ، أو أطرى المحبوب ترك حبيباً في ضر يعقوب ، أو مدح ذا الكرم الهنيء الشيم ترك زهيراً يكدح بعلاجه في هرم ، فهو أشعر المغاربة ... معانيه لكل دمية كالوشاح ، بل لكل روضة كالأقاح .

أما «أبو العلاء المعري» فيقول فيه :

ما أشبهه إلاّ برحى تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه . . . وردّ ابن خلكان على المعري بقوله :

لعمري ما أنصفه في هذا المقال ، وما حمله على هذا إلاّ فرط تعصبه للمتنبيء وبالجملة فما كان إلاّ من المحسنين في النظم .

ومن المستشرقين الذين ذكروا «ابن هانيء» في كتبهم «فان كريمر» ، و «هامر» ، و «هوارت» ، وقد ترجم «فان كريمر» بعض أشعاره إلى اللغة الألمانية وقال :

قوة البيان ، وكثرة التمثيلات ، وجودة الألفاظ التي لا يكاد يقدر عليها من الشعراء إلاّ القليل ، وهي الأوصاف التي نشرت صيته ، ورفعت ذكره ، وجعلته من الشعراء المحسنين ، ولهذا سمّاه المغاربة «متنبيء» المغرب ، فلا شبهة في كونه مستحقاً لهذا الاسم .

المعزيات

المعزّيات هي القصائد التي نظمها «ابن هانيء» في مدح «المعز لدين الله» الفاطمي وعددها ثلاثة وعشرين . وهي أهم ما في ديوانه ، أو بلغة أصح هي التي سببت له النقمة ثم الموت قتلاً .

وهذه القصائد استنكرها النقاد ، والأدباء لما فيها على حد زعمهم من الكفر ، والإلحاد ، والخروج على المألوف وقد اتخذوها منطلقاً للتجني عليه ، والحط من قيمته الأدبية . والحقيقة فهي اندفاع وراء عاطفة جامحة لم يكن باستطاعة «ابن هانيء» إيقاف عنانها : فيقول :

وطفقتُ أسأل عن أغرّ محجّلٍ
فإذا الأنام جبلّة دهماءُ
حتى دفعت إلى «المعز» خليفة
فعلمتُ أن المطلب الخلفاءُ

جودٌ كان اليمّ فيــه نفــاثة
وكأنمــا الدنيــا عليه غشــاءُ

ويقول في «المعز» أيضاً :

وما بلغ «الاسكندر» الرتبة التي
بلغت ولا «كسرى» الملوك «وتبّع»
سموت من العليــا إلى الذروة التي
ترى الشمس فيها تحت قدركَ تضرعُ
إلى غــاية ما بعدها لك غاية
وهل خلف أفلاك السماوات مطلعُ ؟

إن أقوال النقاد في «ابن هانيء» كثيرة ، فقد وصفوه بالغلو ، والمبالغة في مدح «المعز لدين الله» حتى رماه أكثرهم بالخروج على الدين ، والكفر ، والإلحاد .

وكأني بهؤلاء لم يعرفوا «التأويل الفاطمي» ولو انهم أجهدوا أنفسهم بدراسته ومعرفة أصوله لأعادوا النظر بقولهم ، فعندما نذكر ذلك لا ندافع عن «ابن هانيء» ، ولكن نذكر بأن بعض الشعراء الكبار أرسلوا الشعر بممدوحيهم بغية نيل عطاء ، أو حاجة ، بعكس «ابن هانيء» فإنه مدح «المعز» لا لنيل أجر أو عطاء بل كانت ثمرات روحية صادقة

خارجة من صميمه ، وأفكار عبرت عن مشاعره دونما شك أو ارتياب .

ولا بد من المقارنة والقول : بأن « المتنبيء » قال في « ابن عمّار » وهو أحد الأمراء أكثر مما قال « ابن هانيء » « بالمعز » وهو أكبر خليفة في العالم الإسلامي . « فالمتنبيء » قال :

لعظمتَ حتى لو تكون أمانةً
ما كان مؤتمناً بها جبريلا
لو كان علمك بالإلهِ مقسّماً
في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظلك فيهم ما أنزل
القرآن والتوراة والإنجيلا

وقال أيضاً في « سيف الدولة » :

وقفتَ وما في الموت شك لواقفٍ
كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تجاوزتُ مقدار الشجاعة والنهى
إلى حدٍّ قولٍ أنت بالغيب عالمُ

إنَّ مدائح « ابن هانيء » في المعز من الناحية الشعرية اعتبرها النقاد ذاخرة بالبيان المتين ، والتركيب البديع ، وسلامة اللغة ، وطول النفس . كقوله :

فإذا غضبتَ علته دونك ربدة

يغدو لهـــا طرف النهار كليلا

وإذا طويت على الرضى أهدى إلى

شمس الظهيرة عارضاً مصقولا

سمّاه جدك ذا الفقار وإنمـــــا

سمّاه من عاديت عزرائيـــــلا

وكأن به لم يبق وتراً ضائعـــاً

في كربلاء ولا دمـــاً مطلولا

أوَما سمعتم عن وقائعه التي

لم تبقِ إشراكاً ولا تبـــــديلا

سارت بها شيعُ القصائـــد شرّداً

فكأنمـــا كانت صبـــاً وقبولا

حتى قطعن إلى العراق الشام عن

عرضٍ وخضْن إلى الفرات النيلا

ويقول مهنئاً « المعز » بعد انتصاره بأحد المعارك :

أتوكَ فلم يردد منيبٌ ولم يبح

حريمٌ ولم تخمش لغانيـــة خدّ

إذا كان تـــدبير الخلائق كلها

له لعبـــاً فانظر لمن يدخر الجدّ

فما ظنّكم لو كان جرّد سيفــه
إذا كان هذا بعض ما فعل الغمدُ

وقال مادحاً القائد « جوهر » الصقلي :

فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
تخبّ المطايا فيه عشر وتوضعُ
تسير الجبالُ الجامدات بسيره
وتسجد من أدنى الحفيف وتركعُ
إذا حلّ في أرضٍ بناها مدائناً
وإن سار عن أرضٍ ثوت، وهي بلقعُ

وأخيراً :

طوى الموت « ابن هانيء » منذ ألف عام ونيف . ولكنه لم يستطع أن يطوي أدبه الخالد ، وشعره الزاخر ، وأنغامه التي أرسلها في أذن الأجيال ، والدهور .

فهرس الموضوعات

مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية ،
حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ،
حسن إبراهيم حسن . ١٩٤٦

النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن ، حسن
إبراهيم حسن . ١٩٣٩

عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٥

المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف . ١٩٤٧

كنوز الفاطميين ، زكي محمد . ١٩٣٧

تاريخ جوهر الصقلي ، علي إبراهيم حسن . ١٩٣٣

في أدب مصر الفاطمية ، محمد كامل حسين ١٩٥٠

الصليحيون ، حسين همذاني —

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق . محمد جمال سرور ، ١٩٥٧ .
مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧
افتتاح الدعوة ، النعمان بن حيّون —
المجالس والمسايرات . النعمان بن حيون —
الهمة في آداب أتباع الأئمة ، محمد كامل حسن ١٩٥٠
عيون الأخبار ، إدريس عماد الدين —
مجموعة الوثائق الفاطمية . جمال الدين الشيّال ١٩٥٨
الحاكم بأمر الله وأسرار الدّعوة الفاطمية ، محمد عبد الله عنان . ١٩٣٧
نظم الفاطميين ورسولهم في مصر ، عبد المنعم ماجد ١٩٣٧
السجلات المستنصرية ، عبد المنعم ماجد . ١٩٥٤
الامام المستنصر بالله الفاطمي ، عبد المنعم ماجد . ١٩٦١
الحاكم بأمر الله المفترى عليه ، عبد المنعم ماجد . ١٩٥٩
نظم الحكم في مصر الفاطميين ، مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨
سيرة جعفر الحاجب ، و . إيفانوف . ١٩٣٠
صلة تاريخ الطبري ، غريب بن سعد —
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة . الباقلاني. ١٩٣٩
رسائل الحاكم بأمر الله كتب سنة ٤٠٨ ، مخطوطة .

عبقرية الفاطميين ، محمد حسن الأعظمي . ١٩٦٠
الناصر لدين الله ، سيمون حايك . ١٩٦٢
نظام الوزارة في العصر الفاطمي – مقالة في مجلة الثقافة ،
جمال الدين الشيّال . ١٩٥١
أصل الذمة في العصر الفاطمي ، مقالة في مجلة
المقتطف ، جمال الدين الشيّال . ١٩٥٤
البيان المغرب في أخبار المغرب ، ابن عذارى .
سيرة الأستاذ جوذر الكاتب ، محمد كامل حسين ومحمد عبد
الهادي شعيرة .
أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ، فوندر ، ليدن . ١٩٢٧
معجم البلدان ياقوت الحموي
تاريخ الرسول والملوك الطبري
تقويم البلدان أبو الفداء
كتاب البلدان اليعقوبي
ديوان ابن هانيء الاندلسي عارف تامر
الشاعر تميم بن المعز الفاطمي (دراسة) عارف تامر

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 (De Goeje) M.G

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - (Prince - Mamour - London 1934) .

Fatimid - Decrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande (1942-1947) .

Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse : (Deiremery, M.C.)

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis - Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leiden - 1948 .

The rise of the Fatimids - (Calcuta,) 1942. W.Ivanow

A Guide to Ismaïli Literature:London,1933.W.Ivanow

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

En Quête aux pays du Levant — « M. Barrès ».